الجهاد فيه بأس شديد ومنافع للناس

تمهيد :

سميت سورة الحديد بهذا الاسم لأن فيها آية تتكلم عن الحديد ،وهي قوله (وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) فالحديد فيه بأس شديد لأنه يدخل في صناعة الأسلحة الخفيفة كالسيوف والثقيلة كالدبابات ، وفيه منافع للناس لأن به العمران فيدخل في صناعة أعمدة المباني والكباري والأنفاق وهياكل السيارات والطائرات والسفن ...الخ ، فهو سر النهضة العمرانية والقوة العسكرية ، وهي إشارة إلى وجوب تسلح الدولة المسلمة بالإيمان بالله أولا ثم بالسلاح والعلم الذي به تتحول المادة الخام إلى صناعات متحولة تحقق النفع العام للناس ، وهكذا المسلم لابد وأن يستهدف النفع العام دائما ، وهو ما يتطلب بذل المال والجهد والوقت والدم في سبيل الله ، من هنا جاء الحديث عن الجهاد في سبيل الله بالمال ليستغرق المحور الأول من السورة ثم الجهاد بالنفس بالإشارة إلى أنه درب الأنبياء جميعا وقد استغرق المحور الأخير من السورة .

لكن الجهاد بالنفس يتطلب— أولا – تهيئتها لاستقبال الأمر من الله به دون خوف أو جزع ، وذلك بحضها — ابتداءً– على بذل المال في سبيل الله ، ولذلك قال القاسمي (ولما كان إنزال هذه السورة للأمر بالإنفاق في سبيل الله ، والترغيب فيه ، والحث عليه ، أكثر من ذكره في ضروب من البيان ، وفنون من الإحكام)[1].

فمن لم يقدر على الإنفاق في سبيل الله تعالى وبخل فإنه لن يقدر على الجهاد بالنفس ، ويضن بدمه أن يهراق في سبيل الله تعالى ، فلذلك ترى سورة الحديد تهيئ النفس البشرية تلك التهيئة الربانية في مدرج التربية للجماعة المؤمنة كي تتعود على بذل كل غال ورخيص في سبيل الله تعالى .

وكي تعالج هذا الموضوع استهلت بمقدمة في غاية الروعة تركز علي الاعتقاد في الله سبحانه ، بتسبيح الكون له وتنزيهه عن النقص ، وبيان صفات عظمته وأسمائه الحسنى ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية (جاء التسبيح في القرآن بمختلف تصاريفه وصيغه في سبعة وثمانين موضعا، وافتتحت به سبع سور سميت بالمسبحات)، و(السور التي في صدرها لفظ التسبيح، وهن سبع سور: الاسراء، والحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن، والأعلى) [2] .

فعَنْ عِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ المسَبِّحَاتِ قَبْلَ أَنْ يَرْقُدَ وَيَقُولُ: «إِنَّ فِيهِنَّ آيَةً خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ آيَةٍ»[3]

فبقدر علم المؤمن عن الله وعلمه أنه متصف بصفات الكمال والجمال والجلال ، فإنه حتما ينفق ماله أو يبذل كل غال في سبيل الله دون أن يشعر بالخسارة ، لأنه يعلم أن الملك كله لله ، فهو المالك على الحقيقة ، وإنما هو يعطي لعباده لينفقوا ، فيكون البذل بقدر المعرفة بالله ، فإذا علم المؤمن أن الله هو المالك وأنه هو الذي خلق وبرأ وقدر ، وأنه هو العليم بما في الصدور فعلام يبخل ؟ لذا دار الموضوع الرئيسي للسورة حول تأصيل الدافع الحثيث للبذل والتضحية في سبيل الله ، ألا وهو (الإيمان بالله تعالى) فذلك هو النور الذي يخرج به الناس من الظلمات ..

---

[1]) محاسن التأويل تفسير محمد جمال القاسمي

2) سنن أبي داود تحقيق شعيب الأرنؤوط ج7 ص 397

3) رواه الترمذي ج5 ص 181 رقم 2921 تحقيق الشيخ أحمد شاكر ، قال الألباني : حسن ، وقال الترمذي «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»

لذا تجد أنه ما من آية من آيات هذه السورة إلا وذكر فيها لفظ الجلالة (الله) صراحة أو ضمير يعود عليه مثل قوله (هو الذي) وقوله (له ملك) وقوله (أَرْسَلْنَا) أو فعل لم يسم فاعله كما في قوله (لَا يُؤْخَذُ) لكنه معروف من سياق الجملة ، ثم تلتها سورة المجادلة التي لم تخل آية منها إلا ذكر فيها لفظ الجلالة (الله) صراحة .

وقد ذُكر النور في السورة بستة مواضع ، في قوله (بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) (9)
وقوله (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ) (12)
وقوله (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا) (13)
وقوله (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ)(19)
وقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (28)

ما يعني أن النور يكون بالجهاد في سبيل الله تعالى بالمال والنفس واللسان ، يقول النبي ﷺ (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم)[1].
قال الصنعاني (دليل على وجوب الجهاد بالنفس وهو بالخروج والمباشرة للكفار وبالمال وهو بذله لما يقوم به من النفقة في الجهاد والسلاح ونحوه وهذا هو المفاد من عدة آيات في القرآن (وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ) والجهاد باللسان بإقامة الحجة عليهم ودعائهم إلى الله تعالى وبالأصوات عند اللقاء والزجر ونحوه من كل ما فيه نكاية للعدو (وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ) ، وقال ﷺ لحسان::إن هجو الكفار أشد عليهم من وقع النبل)[2]

قال الشيخ عبد المحسن العباد (هذا الحديث فيه الأمر بجهاد الكفار بالمال وبذل المال لينفق في سبيل الله من أجل إيجاد الأزواد والطعام والنفقة للمجاهدين، وكذلك لشراء المعدات التي تفيد في القتال في سبيل الله، وكذلك كون الإنسان يخرج بنفسه ليدعو المشركين إلى الإسلام، فإن دخلوا في الإسلام لم يقاتلوا، وإن أبوا الدخول في الإسلام قوتلوا حتى يدخلوا فيه أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. وأيضاً: يكون جهادهم باللسان بذمهم وهجوهم في الشعر كما كان حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه يهجو المشركين ويدافع عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين، فالجهاد يكون بالنفس والمال واللسان، ويكون أيضاً بالقلم ومؤداه مؤدى اللسان، ويكون أيضاً بالنية كما في الحديث: (إن بالمدينة لرجالاً ما سيرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم العذر)[3] ، يعني أنهم معهم بالنيات؛ لأنهم كانوا حريصين على الجهاد ولكنهم ما استطاعوا من قلة المال وعدم الظهر الذي يركبونه، فبقوا في البلد متألمين متأثرين يبكون؛ لأنهم لم يجدوا شيئاً يركبونه ويجاهدون مع المسلمين، فالجهاد يكون بهذه الأمور كلها، والحديث فيه الجهاد بهذه الأمور الثلاثة التي هي المال والنفس واللسان. وأورد أبو داود هذا الحديث في باب كراهية ترك الغزو من جهة أن فيه الأمر بالجهاد وهو ضد الترك)[4].

[1]) رواه الحاكم ج2 ص 91 رقم 2427 وصححه على شرط مسلم ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود ج7 ص 265
[2]) سبل السلام ج4 ص 41
[3]) رواه البخاري ج13 ص 334 رقم 4071
[4]) شرح سنن أبي داود ج13 ص 393

وقد عقدت – السورة – مقارنة بين حال المؤمنين والمؤمنات وحال المنافقين والمنافقات يوم القيامة وما آل إليه مصيرهما ، لتبين أهمية موضوع البذل في سبيل الله ، وأنه **المعيار الفاصل بين الإيمان والنفاق** ، فهذا فريق مؤمن مصدق بربه استحق الدرجات العلى فكان مع الصديقين والشهداء ، وذاك فريق لم يحقق الإيمان المرجو منه ، تحلى بالإيمان ظاهرا لكنه لم يقدم لدينه المال الذي هو حق لله تعالى على عباده وغرتهم الدنيا فحرموا النور يوم القيامة وفتنوا فكان مصيرهم النار .

وفي ذات الوقت صورت السورة سعة الجنة بسعة السماوات والأرض ، وما فيها من نعيم حتى تشرئب لها أعناق المؤمنين وتهوي إليها أفئدتهم ليسارعوا إلى تقديم الخير الذي به ينالوا خيرها ، وفي المقابل صورت حقيقة الدنيا وما فيما من نعيم زائل بالنبات الذي لا يلبث حتى يذبل ، ليزهد المؤمنون فيه وليعلموا أن ما ينفقونه من مال في سبيل الله تعالى لا ينقص من متاع الدنيا شيء .

ومن جهة أخرى كشفت السورة عن طبيعة النفس البشرية التي تختال بهذا المتاع الزائل وتفرح به فرحا شديدا يصرفها عن الإنفاق في سبيل الله تعالى ، فيزهدها الله فيه بالمنع والحرمان ، لعلها تعتبر عندما تنزل عليها المصيبة ، فتعرف حقيقة الدنيا ، فتنظر إليها من منظور مختلف، فالله غني عن هؤلاء البخلاء أن يتصدقوا أو يعطفوا على إخوانهم الفقراء.

ويأتي الشوط الأخير من السورة ليتحدث عن تنزيل الله الرسل والرسالات ، فالله جعل السلطان حارسا لهذا الدين ، فالإيمان بالله تعالى الذي دعت إليه السورة ليس يقتصر علي شعائر تمارس خالية من أي مضمون أو تأثير يعود بالنفع على النفس البشرية والمجتمع ، وإنما حقيقة الإيمان بالله الذي يصل بالمؤمن إلى مرتب الرهبانية هو الجهاد في سبيل الله تعالى بالمال والنفس ، وذلك هو ما سار عليه جميع الأنبياء من لدن نوح حتى عيسى بن مريم ومن بعده محمد ﷺ ، ولذلك دعت السورة في آخرها إلى الإيمان بالله تعالى حقا ، ذلك الإيمان الذي يخرجهم إلى النور الذي يضيء للمؤمنين طريقهم فيمشون فيه ، وهو ما اختص الله به عباده فضلا منه ورحمة ، وهو الفضل الذي يعطيه الله تعالى لمن يشاء ، لأنه سبحانه ذو الفضل العظيم ، فلا فضل لأحد غير الله تعالى .

مقدمة سورة الحديد

ترسيخ الاعتقاد في الله تعالى – أسمائه وصفاته – تمهيدا لمتطلبات الإيمان

قال تعالى (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) (الحديد/1-6)

قوله (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(1) إخبار وتقرير عن انتظام الكون بمنظومة التسبيح لله تعالى ، قال ابن تيمية (الأمر بتسبيحه يقتضي **تنزيهه عن كل عيب وسوء، وإثبات صفات الكمال له**؛ فإن التسبيح يقتضي التنزيه والتعظيم، والتعظيم يستلزم إثبات المحامد التي يحمد عليها، فيقتضي ذلك تنزيهه وتحميده وتكبيره وتوحيده)1 .

ولفظ (لله) يفيد الاختصاص ، أي اختصاصه وحده بالتسبيح ، فهو المنزه عن النقص ، الكامل في شئونه ، ولما كان الله وحده المستحق للتسبيح ، فليس لأحد أن يعجب بشيء من زخرف الدنيا ، وقد ملك الله سبحانه السماوات والأرض ، فالعقل ليذهل حتى العجب من روعة ما رأت العين من بديع صنع الله تعالى ، ليطلق اللسان كلمة (سبحان) متعجباً أن فاق صنع الله الوصف والكلمات بل والخيال ، تماما مثل من يرى شيئا عجيبا ، فيعجز عن وصفه

فعن النبي ﷺ قال (بينما رجل يسوق بقرة له قد حمل عليها التفتت إليه البقرة ، فقالت : إني لم أخلق لهذا ولكني إنما خلقت للحرث ، فقال الناس سبحان الله تعجبا وفزعا أبقرة تكلم ؟ فقال رسول الله ﷺ فإني أومن به وأبو بكر وعمر) [2] ، فكما أن الناس أثير استعجابهم أن بقرة تتكلم ، فقالوا "سبحان الله" ، فإن المؤمن ليعجب ذات العجب عندما يشاهد صنع الله الذي أتقن كل شيء ، فيرى مُلكه الفسيح ، فينضم إلى طائفة المتعجبين المطلقين لكلمة التسبيح لله تعالى خاصين خالقهم بها .

ولفظ (ما في) أفاد العموم ، فشمل كل الأشياء من أحياء وجمادات ، ما علمنا وما لم نعلم ، كل يسبح لله سبحانه ، قال تعالى (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ** وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) (الإسراء/44)، قال الرازي (فأجزاء السموات وَذَرَّاتُ الْأَرْضِ وَالْجِبَالُ وَالرِّمَالُ وَالْبِحَارُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ وَالْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ وَاللَّوْحُ وَالْقَلَمُ وَالنُّورُ وَالظُّلْمَةُ وَالذَّوَاتُ وَالصِّفَاتُ وَالْأَجْسَامُ وَالْأَعْرَاضُ كُلُّهَا مُسَبِّحَةٌ خَاشِعَةٌ خَاضِعَةٌ لِجَلَالِ اللَّهِ مُنْقَادَةٌ لِتَصَرُّفِ اللَّهِ)[3] .

---

[1]) [الفتاوى: 125/16]
[2]) رواه مسلم في صحيحه ج 4 ص 1857 رقم 2388
3) مفاتيح الغيب ج29 ص 442

والطير تسبح ، قال تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ **يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ** صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) (النور 41) .

والحشرات تسبح روي عن النبي ﷺ قال (قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ، فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ، فَأُحْرِقَتْ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقْتَ **أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ**)[1] .

كما تسبح الدواب البرية والبحرية وكذا من البرمائيات ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ، قَالَ : لاَ تَقْتُلُوا الضَّفَادِعَ[2] ، فَإِنَّ **نَقِيقَهَا الَّذِي تَسْمَعُونَ ، تَسْبِيحٌ**)[3].

وكذلك تسبح الجمادات ، فالجبال تسبح ، قال تعالى (وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ **الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ** وَكُنَّا فَاعِلِينَ (الأنبياء 79) ، وتسبيحها يدل على حصول وحلول البركة ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: (كُنَّا نَعُدُّ الآيَاتِ بَرَكَةً، وَأَنْتُمْ تَعُدُّونَهَا تَخْوِيفًا، كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَقَلَّ الماءُ، فَقَالَ: «اطْلُبُوا فَضْلَةً مِنْ مَاءٍ» فَجَاءُوا بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ قَلِيلٌ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي الإِنَاءِ، ثُمَّ قَالَ: «حَيَّ عَلَى الطَّهُورِ المُبَارَكِ، وَالبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ» فَلَقَدْ رَأَيْتُ الماءَ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ **وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ**)[4]

وعن أَبِي ذَرٍّ قَالَ: إِنِّي انْطَلَقْتُ أَلْتَمِسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ حَوَائِطِ الْمَدِينَةِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَاعِدٌ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ أَبُو ذَرٍّ حَتَّى سَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ أَبُو ذَرٍّ: وَحَصَيَاتٌ **مَوْضُوعَةٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَخَذَهُنَّ فِي يَدِهِ فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ،** ثُمَّ وَضَعَهُنَّ فِي الْأَرْضِ فَسَكَتْنَ، ثُمَّ أَخَذَهُنَّ **فَوَضَعَهُنَّ فِي يَدِ أَبِي بَكْرٍ فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ،** ثُمَّ أَخَذَهُنَّ فَوَضَعَهُنَّ فِي الْأَرْضِ فَخَرَسْنَ، ثُمَّ أَخَذَهُنَّ فَوَضَعَهُنَّ **فِي يَدِ عُمَرَ، فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ،** ثُمَّ أَخَذَهُنَّ فَوَضَعَهُنَّ فِي الْأَرْضِ فَخَرَسْنَ، ثُمَّ أَخَذَهُنَّ **فَوَضَعَهُنَّ فِي يَدِ عُثْمَانَ فَسَبَّحْنَ،** ثُمَّ أَخَذَهُنَّ فَوَضَعَهُنَّ فِي الْأَرْضِ فَخَرَسْنَ "[5].

قوله (..وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(1) يعني أن الذي تنزهه مخلوقاته عن النقص بالتسبيح ، حري بأن يكون متصفا بالعزة والحكمة ، فلا أدل على عزته من اختصاصه بملك مخلوقاته التي تسبحه ، وليس أدل على حكمته من تصريفه الكون ، وتدبيره الأمر ، فيحيي هذا ويميت ذاك ، بحكمة هو يعلمها سبحانه.

قوله (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(2) اختصاص – بتقديم الخبر على المبتدأ – تضمن قصر ملك السماوات والأرض لله ، فأفاض في تعليل سبب تسبيح الكائنات والأشياء لله رب العالمين ، فلأن الله سبحانه له ملك السماوات والأرض ، ولأنه قادر على كل شيء ، وأنه وحده المصرف لكل الشئون ، أي (أن

---

1) رواه البخاري ج4 ص 62 رقم 301 9

[2]) فمعلوم أن قتله ليس بقصد الأكل ، لأنه محرم ، لأنه مفترس يأكل غيره من الضفادع والفئران وغير ذلك .

[3]) موقوف : مصنف ابن أبي شيبة ج7 ص 450 قال البيهقي إسناده صحيح

قال الألباني : رأيت الحديث في "العلل" لابن أبي حاتم (2/ 330/ 2510) ؛ وذكر الاختلاف في إسناده ، وذكر عن أبي زرعة أن الأصح : حديث شعبة عن قتادة عن زرارة عن أبي الحكم عن عبد الله بن عمرو .

وأبو الحكم : هو عبد الرحمن بن أبي نعم .

قلت : وهو عنده موقوف غير مرفوع ، ولعله الصواب ، أخطأ المسيب فرفعه .

ثم وقفت على الحديث في "مصنف عبد الرزاق" (4/ 452/ 8418) : عن ابن التيمي عن سعيد عن قتادة قال : سمعت زرارة يحدث عن ابن أبي نعم عن عبد الله بن عمر (كذا) موقوفاً .

انظر : سلسلة الأحاديث الضعيفة ج10 ص 331 رقم 4789 بهذا التعليق يستبين أن الألباني يميل إلي وقفه وليس رفعه

4) رواه البخاري ج4 ص 194 رقم 3579

[5]) السنة لابن أبي عاصم ج2 ص 543 رقم 1146 ، وقال الألباني : حديث صحيح ورجال إسناده ثقات غير عبد الحميد بن إبراهيم وهو أبو تقي فيه ضعف من قبل حفظه ولكنه قد توبع : السنة لابن أبي عاصم ومعها ظلال الجنة للألباني ج 2 ص 543

له سلطان ذلك كله، فلا شيء فيهن يقدر على الامتناع منه)[1] ، كل ذلك يقود المؤمن إلى البذل والعمل والجهاد بالنفس والمال في سبيل الله ، لاعتقاده أن **الله تعالى هو المالك للموجودات حقيقة [2]، وغيره من المالكين لا يملكون على الحقيقة** ، فالإنسان إنما هو مستأمن في ملك الله تعالى ، ولاعتقاده -كذلك- أن الله تعالى هو المتصرف في ملكه كيفما يشاء ، لاسيما وأنه قادر على الإحياء والإماتة ، فله القدرة المطلقة ولا يعجزه شيء ، فعلى العبد أن يذعن لربه , فينفذ أمره ، ولا يبخل أن يضحي بماله ونفسه في سبيله دون تردد أو تلكؤ ، وقد علم أن نفسه التي بين جنبيه هي ملك لله تعالى يحييها ويقبضها كيف يشاء .

وقد كان النبي ﷺ يعلم أصحابه تلك العقيدة ، ويربطها بحياته اليومية ، فالنوم والاستيقاظ صورة مصغرة للإماتة والإحياء ، وتتكرر كل يوم ، فهل من متفكر ومعتبر ؟ ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَأْخُذْ دَاخِلَةَ إِزَارِهِ فَلْيَنْفُضْ بِهَا فِرَاشَهُ وَلْيُسَمِّ اللَّهَ فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا خَلَفَهُ بَعْدَهُ عَلَى فِرَاشِهِ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَضْطَجِعَ فَلْيَضْطَجِعْ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ وَلْيَقُلْ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبِّي بِكَ وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ **إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَاغْفِرْ لَهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا** بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ)[3]، وفي رواية (بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي فَإِنْ **أَحْيَيْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا**)[4].

أما إذا لم يتمكن هذا المعنى من قلب العبد ، وأضحى في عقيدته شك ، فلا غرو تراه يتلكأ عن الجهاد بالمال ، وتراه -تارة أخرى- يجزع عن الجهاد بالنفس .

قوله (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (3) روي أن النبي ﷺ كَانَ يَقُولُ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ [5] [اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنْ الْفَقْرِ] [6]

فقوله (أنت الأول) لأنه مستغن عن خلقه

وقوله (وأنت الآخر) أي الباقي بصفاته التي كان عليها في الأزل بعد موت الخلق وذهاب صفاتهم

(وأنت الظاهر) أي القاهر الغالب وقيل الظاهر بالأدلة القطعية

وقوله (وأنت الباطن) أي المحتجب عن الخلق وقيل العالم بالخفيات)[7]

قيل لأبي سعيد الخراز : بِمَ عرفت الله؟ قال : بجمعه بين الأضداد ، ثم تلا هذه الآية : (هو الأول والآخر ، . .) الخ ، قال ابن تيمية (أراد أنه يجتمع له ما يتناقض في حق الخلق)[8]، فما يتعذر الجمع بينه من الصفات المتضادة في حق العباد ، فليس كذلك في حق الله .

---

1) بو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (المتوفى: 437هـ) : الهداية إلى بلوغ النهاية ج 11 ص 7304

2) تفسير النسفي ج2 ص 320 الإنصاف للباقلاني ج1 ص 15 ، البيهقي : شعب الإيمان ج1ص209 ،ابن القيم: شفاء العليل ج1 ص 115

3) رواه مسلم ج13 ص 240 رقم 4889

4) رواه مسلم المرجع السابق

5) رواه ابن ماجة ج11 ص 338 رقم 3863 وذكر باقي الحديث ، وصححه الألباني صحيح ابن ماجة ج2 ص 333 رقم 3123

6) رواه مسلم ج 4 ص 2084 رقم 2713

7) الديباج على مسلم ج6 ص 67

8) مجموع فتاوى ابن تيمية في التفسير ج4 ص 388

قال القشيري (هو الأول في عين آخريته ، والآخر في عين أوليته ، والظاهر في عين باطنيته ، والباطن في عين ظاهريته ، من حيثية واحدة ، واعتبار واحد ، في آنٍ واحد؛ لأنها ذاته المطلقة عن هذه الاعتبارات المختلفة ، والحيثيات المتنافرة؛ لإحاطته بالكل ، واستغنائه عن الكل)[1].

وهذا يعني أن صفاته مطلقة وليست بالنسبة ، فكونه الأول أفاد بذلك ألا يتقدم عليه أحد ، وينبثق من هذا المعنى أن حقوق الله تعالى تتقدم على حقوق العبيد ، فإذا ما تعارض الحقان فحق الله أولى بالقضاء ، فعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة أتت رسول الله ﷺ فقالت :إن أمي ماتت وعليها صوم شهر فقال أرأيت لو كان عليها دين أكنت تقضينه ؟ قالت نعم ، قال (**فدين الله أحق بالقضاء**)[2] ، ولذلك فإن أموال الميراث لا تقسم إلا بعد استيفاء حقوق الله منها كالزكاة وخلافه ..الخ ، والأمثلة على ذلك كثيرة.

وكونه "الأخر" فليس بعده شيء ، تفرع عنه أن الله يُصمد إليه في الحوائج ، فإذا اشتكي العبد فإنه يلجأ إلى الله أولا وآخرا ، ولا أحد بعده ، ليستقر في قلب المؤمن أن إلى الله المصير ، وأن كل موجودات الدنيا هالكة وسوف تفنى ، ولا يبقى إلا الله وحده سبحانه آخر بلا نهاية ، قال تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) (الرحمن/26-27) ، واقتران الصفتين معا أضاف استحقاقه للألوهية والتفرد بها ، لأنه ليس لوجوده بداية ، ولا لبقائه نهاية.

أما كونه عز وجل (الظاهر) فليس فوقه شيء ، فذلك يعني أن الله غالب على أمره ، فما من مبارز لله أو محاد لدين الله تعالى إلا غلبه الله سبحانه وقهره ، فلا يظهر غير شرعه ودينه ، وقد وعد بأن يظهره على الدين كله ، يقول سبحانه (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) (الصف/9) ، وقال تعالى (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (آل عمران/160)

وأما كونه سبحانه (الباطن) فليس دونه شيء ، فالمعنى كما يقول الطبري (فلا شيء أقرب إلى شيء منه) ، قال سبحانه (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)(البقرة/186) .

وقد كان النبي ﷺ يدعو ربه بهذه الصفات ، فعن أبي هريرة قال كان رسول الله ﷺ يقول : إذا أوى إلى فراشه (اللهم رب السماوات والأرض ورب كل شيء فالق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والقرآن أعوذ بك من كل ذي شر أنت آخذ بناصيته ، أنت **الأول** فليس قبلك شيء ، وأنت **الآخر** فليس بعدك شيء ،وأنت **الظاهر** فليس فوقك شيء ، وأنت **الباطن** فليس دونك شيء اقض عني الدين وأغنني من الفقر)[3]، وفي رواية مسلم (**اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنْ الْفَقْرِ**)[4].

---

[1]) البحر المديد ج6 ص 242
[2]) رواه مسلم ج 2 ص 804 رقم 1148
[3]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 415 رقم 1212 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج1 ص 490
[4]) رواه مسلم ج13 ص 239 رقم 4888

يقول صاحب الظلال (الأول والآخر مستغرقا كل حقيقة **الزمان** , والظاهر والباطن مستغرقا كل حقيقة **المكان** ، وهما مطلقتان ، ويتلفت القلب البشري فلا يجد كينونة لشيء إلا لله)[1] .

قوله (..وهو بكل شيء عليم) (3) تذييل الآية ، فقد أحاط بكل شيء علما ، بل أحاط علما سبحانه بما يدور في الصدور من حديث المرء نفسه ، قال تعالى (وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) (طه/7) ، وهو ما قاله نبي الله عيسى لربه سبحانه (تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ) (المائدة/116).

قوله (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ..) (4) يذكرنا القرآن بخلق الله تعالى للسماوات والأرض في أكثر من موضع ، لكن في هذه الآية يبدو التركيز على المدة التي خلقت فيها السماوات والأرض ، وقد بين الله ذلك في القرآن سبع مرات مؤكدا أنه خلقهما وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش .

وقد يبدو تعارض ظاهرا بين هذه الآية والتي أفادت أن الله خلق الكون في ستة أيام ، وبين الحديث الذي ذكره أبو هريرة قال أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال خلق الله عز وجل التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل [2] ، حيث أفاد هذا الحديث أن خلق الكون كان في سبعة أيام وليس في ستة أيام كما أشارت بذلك الآية [3]، وقد رد الألباني على من توهم هذا التعارض [4]، إذ لم يبين الحديث أن هناك خلق لأحد بعد خلق آدم يوم الجمعة إلى يوم السبت مرة أخرى ، فمن ليل السبت الأول إلى ليل الجمعة ستة أيام ، وعليه يكون الجمع بين الآية و الحديث ممكنا .

وتخصيص المولى سبحانه هذه الأيام الستة لخلق الكون بالرغم من أنه قادر على أن يخلقهم في أقل من ذلك بأمره للشيء كن فيكون ، كما في قوله سبحانه (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) (النحل/40) ، فذلك يعني أنه سبحانه من حكمته ألا يظهر قوته وقدرته إلا بقدر الحكمة المتطلبة لذلك .

ومن هنا يتعلم الإنسان من ربه أن يطلق طاقاته بحسب متطلبات حياته ، لا أكثر من ذلك ولا أقل ، يقول النبي ﷺ (القصد القصد تبلغوا)[5]، فلا تكون العبادة لله تعالى حتى إنهاك القوى وإضعاف الجسد وإرهاق العقل ، وإنما تكون العبادة لله تعالى قصدا ، ليكون القلب أشد إقبالا على الطاعة والجسد أكثر قوة في أدائها ، وكذلك الإنفاق في سبيل الله يكون قصدا ، ولذلك قال تعالى (وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (البقرة/195) .

وقد ضرب الله لنا المثال علي الحكمة والصبر بمدة خلقه السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فرغم قدرته على كل شيء أن يكون في لمح البصر ، وأن قدرته لا تستنفد ، ودون أن يعييه ذلك ، كما في قوله سبحانه (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ) (ق/38) وقوله (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) (القمر 50) ، لكنه سبحانه خلقهما في ستة آيام .

---

[1]) في ظلال القرآن سورة الحديد

[2]) رواه مسلم ج 4 ص 2149 رقم 2789

3 / رد ابن كثير هذا الكثير وقال (وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم وقد تكلم عليه علي بن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ وجعلوه من كلام كعب وأن أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحبار وإنما اشتبه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعا وقد حرر ذلك البيهقي) ج 1 ص 102 ، وقال (وقد علله البخاري في التاريخ فقال رواه بعضهم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن كعب الأحبار وهو الأصح) ج4 ص 118

[4]) وقد صحح الألباني هذا الحديث في السلسلة الصحيحة ج 4 ص 449 رقم 1833 وقال (وليس الحديث بمخالف للقرآن كما يتوهم البعض راجع المشكاة 5735 ، ثم مختصر العلو للذهبي رقم الحديث 71 . انظر التحقيق المطول في الكتاب قسم الاستدراك ص 664 . وخلاصته : فالتفصيل الذي في الحديث هو غير التفصيل الذي في القرآن الكريم وأيامه غير أيامه فالواجب في مثل هذا عند أهل العلم أن يضم أحدهما إلى الآخر وليس ضرب أحدهما بالآخر)

[5]) رواه البخاري ج 5 ص 2373 رقم 6098

وقد حاول القرطبي استباط الحكمة من خلق السموات والأرض في ستة أيام فقال : (... وذكر هذه المدة – أي ستة أيام – ولو أراد خلقها في لحظة لفعل ؛ إذ هو القادر على أن يقول لها كوني فتكون ، ولكنه أراد أن يعلم العباد الرفق والتثبت في الأمور)[1] .

وقال ابن الجوزي (... فإن قيل : فهلا خلقها في لحظة ، فإنه قادر ؟ فعنه خمسة أجوبة :

أحدها : أن التعجيل أبلغ في القدرة ، والتثبيت أبلغ في الحكمة ، فأراد إظهار حكمته في ذلك ، كما يظهر قدرته في قوله (كن فيكون) [2].

وقال القاضي أبو السعود (... وفي خلق الأشياء مدرجاً مع القدرة على إبداعها دفعة دليل على الاختيار ، واعتبار للنظار ، وحث على التأني في الأمور) [3]

وقال (...فإن من أنشأ هذه الأجرام العظام على هذا النمط الفائق والنسق الرائق بتدبير متين وترتيب رصين ، في أوقات معينة ، مع كمال قدرته على إبداعها دفعة لحكم جليلة ، وغايات جميلة ، لا تقف على تفصيلها العقول ...)

يقول صاحب الظلال (والأيام الستة لا يعلم حقيقتها إلا الله ، فأيامنا هذه ليست سوى ظلال ناشئة عن حركة الأرض حول نفسها أمام الشمس ، وجدت بعد خلق الأرض والشمس، فليست هي الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض ، فنترك علمها لله يطلعنا عليه إن أراد ، وكذلك العرش ، فنحن نؤمن به كما ذكره ولا نعلم حقيقته) [4].

قوله (...ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ[5]) (4) والمعنى الذي يشير إليه اللفظ في هذا الموضع هو (الملك) ، أما الاستواء عليه ، فقد ذهب فيه السلف إلى فريقين ، فريق تأوله ، وفريق أخذ بالتسليم دون أن يتأول.

جاء في التسهيل (حمل قوم الاستواء على ظاهره ، وتأوله قوم **بمعنى قصد** كقوله " ثم استوى إلى السماء " ولو كان كذلك لقال : ثم استوى إلى العرش ، وتأولها آخرون أنها **بمعنى استولى بالملك والقدرة** . . والحق هو الإيمان به من غير تكييف ، فإن السلامة في التسليم .

ولله در مالك حين سأله رجل عن ذلك فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عن هذا بدعة ، وقد روي مثل قول مالك عن " أبي حنيفة " و " جعفر الصادق " و " الحسن البصري " ولم يتكلم الصحابة ولا التابعون في معنى الاستواء ، بل امسكوا عنه ، ولذلك قال مالك : السؤال عنه بدعة).

وقد انضم إلى فريق المتأولين – في حدود– الشيخ سيد قطب فقال (أما الاستواء على العرش فنملك أن نقول:إنه **كناية عن الهيمنة على هذا الخلق** ، استنادا إلى ما نعلمه من القرآن عن يقين من أن الله – سبحانه – لا تتغير عليه

---

[1]) تفسير القرطبي ج7 ص 319
[2]) زاد المسير ج2 ص 492
[3]) تفسير أبي السعود ج2 ص 492
[4]) المرجع السابق
[5]) والعرش كما جاء في لسان العرب هو (سرير المِلك يدلُّك على ذلك سرير مِلكة سَبَإٍ سمَّاه الله عز وجل عَرْشاً فقال سبحانه " إني وجدتُ امرأة تملكهم وأُوتيتْ من كل شيءٍ ولها عرش عظيمٌ " وقد يُستعار لغيره) لسان العرب ج 6 ص 313

الأحوال ، فلا يكون في حالة عدم استواء على العرش , ثم تتبعها حالة استواء ، والقول بأننا نؤمن بالاستواء ولا ندرك كيفيته لا يفسر قوله تعالى: (ثم استوى). . والأولى أن نقول:إنه كناية عن "الهيمنة" .

ويقول الدكتور محمد الشنقيطي (القاعدة المعروفة عند علماء السلف أنه لا يجوز صرف شيء من كتاب الله ولا سنة رسوله عن ظاهره المتبادر منه إلا بدليل يجب الرجوع إليه)[1] .

ولذلك برر الشيخ سيد قطب تأويله سالف الذكر بقوله (والتأويل هنا لا يخرج على المنهج الذي أشرنا إليه آنفا لأنه لا ينبع من مقررات وتصورات من عند أنفسنا ، إنما يستند إلى مقررات القرآن ذاته , وإلى التصور الذي يوحيه عن ذات الله سبحانه وصفاته) .

ونحن كما نعلم أن العرش – لغة – هو الملك ، أما الاستواء فقد جاء في أكثر من موضع في القرآن الكريم ، كما في قوله بشأن بلوغ سن الرشاد واكتمال العقل (ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما) (القصص/14) .

وجاء بمعنى الكمال في النمو والنضوج قوله تعالى (كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه (الفتح/ 29) .

وجاء بمعنى رسو السفينة على الشاطئ قوله تعالى (واستوت على الجودي) (هود/33) .

وجاء بمعنى ركوب السفينة ذاتها قوله سبحانه (فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين (المؤمنون/28) .

وجاء في ذات المعنى بشأن ركوب الدابة قوله سبحانه (لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه) (الزخرف/13) .

فهذه المعاني جميعا لا يجوز أن ننسبها إلى الله على وجه الحقيقة ، وإلا أفاد نقصا قبل الاستواء[2] ، فالله أجل وأعظم من ذلك ، لكن يجوز أن ننسب لله معناها المجازي بما يليق بجلاله وعظمته ، ولذلك المعاصرين الشيخ الصابوني قال : [استواء يليق بجلاله ، من غير تمثيل ولا تكييف] ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية (وَالْقَوْلُ الْفَاصِلُ : هُوَ مَا عَلَيْهِ الْأُمَّةُ الْوَسَطُ ؛ مِنْ أَنَّ اللَّهَ مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ اسْتِوَاءً يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَيَخْتَصُّ بِهِ)[3]

وقال ابن تيمية (فَإِنَّ لَفْظَ اسْتَوَى لَمْ تَسْتَعْمِلْهُ الْعَرَبُ على غير حقيقته ، بمعنى أنه يقصد منه جلوس الآدمي على سيريره ، فإذا كان ذلك كذلك فإنه إذا استعمل اللفظ ، تَارَةً : يَكُونُ صِفَةً لِلَّهِ ، وَتَارَةً : يَكُونُ صِفَةً لِخَلْقِهِ . فَلَا يَجِبُ أَنْ يُجْعَلَ فِي أَحَدِ الْمَوْضِعَيْنِ حَقِيقَةً وَفِي الْآخَرِ مَجَازًا) فيفهم من كلام ابن تيمية أنه يحمل اللفظ – لغة – على ظاهره بما يتفق ومعناه في اللغة العربية .

ثم ضبط الفهم للمسألة فقال (وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُفْهَمَ مِنْ اسْتِوَاءِ اللَّهِ الْخَاصِّيَّةَ الَّتِي تَثْبُتُ لِلْمَخْلُوقِ دُونَ الْخَالِقِ ؛ فالذي يجب أن يقال أنه كَمَا أَنَّ ذَاتَهُ لَيْسَتْ مِثْلَ ذَوَاتِ خَلْقِهِ ، فإن عمله ليس مثل عملهم ، فعَمَلُ كُلِّ أَحَدٍ بِحَسَبِهِ)

[1]) محمد الأمين الشنقيطي / منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات ج 1 ص 35 / الدار السلفية – الكويت ط 4 سنة 1404 هـ
[2]) عبد المحسن بن حمد العباد : التحفة السنية شرح منظومة ابن أبي داود المسماة بالحائية ج1 ص 74
[3]) مجموع الفتاوى ج 5 ص 28

وضرب على ذلك عدة أمثلة مثل قَوْله تَعَالَى (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ) وقَوْله تَعَالَى (مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا) وقَوْله تَعَالَى (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) وقَوْله تَعَالَى (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ)(وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)

وعلق على هذه الأمثلة فقال (فَهَلْ يَسْتَحِلُّ مُسْلِمٌ أَنْ يُثْبِتَ لِرَبِّهِ خَاصِّيَّةَ الْآدَمِيِّ الْبَانِي الصَّانِعِ الْكَاتِبِ الْعَامِلِ ؟

أَمْ يَسْتَحِلُّ أَنْ يَنْفِيَ عَنْهُ حَقِيقَةَ الْعَمَلِ وَالْبِنَاءِ كَمَا يَخْتَصُّ بِهِ وَيَلِيقُ بِجَلَالِهِ ؟

أَمْ يَسْتَحِلُّ أَنْ يَقُولَ : هَذِهِ الْأَلْفَاظُ مَصْرُوفَةٌ عَنْ ظَاهِرِهَا ؟

أَمْ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَقُولَ : عَمَلُ كُلِّ أَحَدٍ بِحَسَبِهِ فَكَمَا أَنَّ ذَاتَهُ لَيْسَتْ مِثْلَ ذَوَاتِ خَلْقِهِ

: فَعَمَلُهُ وَصُنْعُهُ وَبِنَاؤُهُ ؛ لَيْسَ مِثْلَ عَمَلِهِمْ وَصُنْعِهِمْ وَبِنَائِهِمْ . وَنَحْنُ لَمْ نَفْهَمْ مِنْ قَوْلِنَا : بَنَى فُلَانٌ . وَكَتَبَ فُلَانٌ : مَا فِي عَمَلِهِ مِنْ الْمُعَالَجَةِ وَالتَّأَثُّرِ إلَّا مِنْ جِهَةِ عِلْمِنَا بِحَالِ الْبَانِي ؛ لَا مِنْ جِهَةِ مُجَرَّدِ اللَّفْظِ الَّذِي هُوَ لَفْظُ الْفِعْلِ وَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ بِخُصُوصِ إضَافَتِهِ إلَى الْفَاعِلِ الْمُعَيَّنِ .

وَبِهَذَا يَنْكَشِفُ لَك كَثِيرٌ مِمَّا يُشْكِلُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ وَتَرَى مَوَاقِعَ اللَّبْسِ فِي كَثِيرٍ مِنْ هَذَا الْبَابِ)[1]

يستفاد من ذلك أنه إذا نُسب الاستواء على العرش لله بعد ذكر خلقه للخلق في ستة أيام ، فقد أفاد ذلك – ضمنا– أنه هو المدبر لحال ملكه الذي خلقه والمتصرف فيه سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، فالله هو العزيز وهو الغني والمهين وهو المدبر للأمر ، فهل يجري في عرشه خلاف ما يريد ؟ فإذا كان ذلك كذلك فحري بعباده أن ينقادوا له وقد ملك كل شيء (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (السجدة 4) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) .

قوله (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا..) فهذه الأرض لا يدخل فيها شيء من حب أو مطر أو موتى..الخ إلا كان بعلم الله [2]، وما يخرج منها من نبات أو زرع أو شجر . والمعادن والكنوز... والجن والشياطين...الخ إلا كان بعلمه سبحانه ، فهذا يدخل في جملة تدبيره للخلق .

فعن أبي رافع أن خالد بن الوليد : جاء إلى النبي ﷺ فشكا إليه وحشة يجدها فقال له : ألا أعلمك ما علمني الروح الأمين جبريل عليه السلام قال : إن عفريتا من الجن يكيدك ، فإذا أويت إلى فراشك فقل أعوذ بكلمات الله التامة التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر **من شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، ومن شر ما ذرأ في الأرض ، ومن شر ما يخرج منها** ، ومن شر طوارق الليل والنهار ومن شر كل طارق يطرق إلا بخير يا رحمن)[3].

---

[1]) مجموع الفتاوى ج33 ص 187

[2] الوجيز للواحدي ج1 ص 741 المحرر الوجيز لابن عطية ج6 ص 297

[3]) رواه البيهقي ج4 ص 175 رقم 4710 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج6 ص 237 رقم 2738

قوله (وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا..) ، فالسماء لم تنزل منها قطرة مطر أو برد أو صاعقة .. إلا كانت بعلمه سبحانه ، ولم يصعد إليها شيء من بخار أو أبخرة ودخان والملائكة)[1]، وكذلك العمل الصالح....الخ إلا كان كل ذلك بعلمه سبحانه .

فقد **استغرق علمه الزمان والمكان جميعا** ، وما علمه جبريل للنبي ﷺ حِينَ كَادَتْهُ الشَّيَاطِينُ قَالَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ خَنْبَشٍ جَاءَتْ الشَّيَاطِينُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ الْأَوْدِيَةِ وَتَحَدَّرَتْ عَلَيْهِ مِنْ الْجِبَالِ وَفِيهِمْ شَيْطَانٌ مَعَهُ شُعْلَةٌ مِنْ نَارٍ يُرِيدُ أَنْ يُحْرِقَ بِهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فَرُعِبَ قَالَ جَعْفَرٌ أَحْسَبُهُ قَالَ جَعَلَ يَتَأَخَّرُ قَالَ وَجَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ قُلْ قَالَ مَا أَقُولُ قَالَ **قُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ** مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ **وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا** وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ فَطَفِئَتْ نَارُ الشَّيَاطِينِ وَهَزَمَهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ)[2].

قال ابن تيمية (فَقَدْ جَمَعَ الْعُلَمَاءُ مِنْ الْأَذْكَارِ وَالدَّعَوَاتِ الَّتِي يَقُولُهَا الْعَبْدُ إذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَى وَإِذَا نَامَ وَإِذَا خَافَ شَيْئًا ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِنْ الْأَسْبَابِ مَا فِيهِ بَلَاغٌ ، فَمَنْ سَلَكَ مِثْلَ هَذِهِ السَّبِيلِ فَقَدْ سَلَكَ **سَبِيلَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ** الَّذِينَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَمَنْ دَخَلَ فِي سَبِيلِ أَهْلِ الْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ الدَّاخِلَةِ فِي الشِّرْكِ وَالسِّحْرِ فَقَدْ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ وَبِذَلِكَ ذَمَّ اللَّهُ مَنْ ذَمَّهُ مِنْ مُبَدِّلَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ)[3].

قوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (4) تأصيل للاعتقاد **بمعية الله** لخلقه لترسيخ حقيقة الإيمان في القلوب، بأنه سبحانه لم يخلق السماوات والأرض وما فيهما عبثا ، وإنما خلق الكون وهيمن عليه هيمنة أكد عليها بالإخبار بأنه استوى على العرش ، كما أكد عليها بقوله (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ) (الأنبياء/16) ،

فإذا **استشعر العبد قدرة الله وإحاطته بخلقه** ، وفي ذات الوقت علم أنه مستخلف على هذا الكون ، باعتباره سيدا يقوم بأمر الله وينتهي بنهيه ، عندئذ يدرك الإنسان **لماذا خلقه الله** سبحانه ؟ ويدرك **الدور المنوط به** في هذا الكون الفسيح ، فهو يعيش في كون الله وهو يعلم أن الله معه ومستخلفه ، فلا يُقَصِّر في عبادته لله ، ولا يعضله كيد الأعداء مهما بلغ وإن بلغ مثلما بلغ بأصحاب الأخدود الذين حرقوا بلا ذنب ، أو من قتلوا بإلقاء قنبلة هيروشيما النووية 6 ، 9 أغسطس 1946 ، الذين يظنون أنهم قادرون في هذه الأرض وينسون قدرة الله تعالى ، فيظنون أنهم معجزي الله .

انظر ماذا قال النبي ﷺ لأبي بكر حين أخرجته قريش ، فعن أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْغَارِ فَرَأَيْتُ آثَارَ الْمُشْرِكِينَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ رَفَعَ قَدَمَهُ رَآنَا قَالَ **مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا**)[4]

---

[1]) تفسير ابن أبي حاتم ج12 ص 13 عن السدي
[2]) رواه أحمد ج31 ص 12 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج6 ص 494 رقم 2995
3) مجموع الفتاوى ج24 ص 282
[4]) رواه البخاري ج14 ص 225 رقم 4295

قال تعالى (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ **لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (التوبة 40) .

فالله تعالى يريد أن يعلمنا أنه خلق السماوات والأرض ولم يتركهما هملا ، وإنما وضع للكون نظم وأحكام ربانية كونية وأخرى شرعية يجب على هذا المكلفيت أن يسيروا عليها ولا يخرج أحد عن شرعه ، فالكون محاط بعلم الله تعالى الذي وسع كل شيء ، فمهما كاد الأعداء فالله ناصر عباده المظلومين أينما كانوا ، ولكن **الله يختار الله لهذه المهمة عباده المؤمنين ليدافعوا عن المظلومين**

لاسيما إذا كانوا مؤمنين فهو أولى بالبر والصلة ، (**فالمؤمن مع المؤمن كالبينان يشد بعضه بعضا**)[1] ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا مِنْ امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ ، وَ**مَا مِنْ امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ**)[2].

قوله (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)(5) تأكيد على معنى أن الله تعالى هو المالك على الحقيقة ، وأننا مستخلفون في ملك الله تعالى ، ونتصرف في ملك الله كما أمر الله ، كما قال النبي ﷺ (**لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ**)[3] ، جاء في الشرح (الملك الحقيقي ليس إلا هو ، وملكية غيره مستعارة فمن سمي بهذا الاسم نازع الله بردائه وكبريائه ولما استنكف أن يكون عبد الله جعل له الخزي على رؤوس الاشهاد)[4].

فالإنسان لا يملك شيئا من ملك الله وإنما هو مستخلف فيه ، يقول النبي ﷺ (إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ **وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**)[5]، قوله (مستخلفكم فيها) قال السيوطي أي (يجعلكم خلفا من القرن الذي قبلكم)[6]، (جاعلكم خلفاء في الدنيا) ،(فإنها لم تصل إلى قوم إلا بعد آخرين)[7] ، قوله (فناظر كيف تعملون) قال المناوي أي (كيف تتصرّفون في مال الله الذي آتاكم هل هو على الوجه الذي يرضاه المستخلف أو لا)[8].

ويتفرع عن ذلك أن مقاليد الأمور بيد الله تعالى ، فلا أحد يقدر أن يبارز الله تعالى في ملكه ، وقد قال تعالى في الحديث القدسي (**الكبرياء ردائي فمن نازعني ردائي قصمته**)[9] ، وليس أكد على تصريفه للملك بكيفية لم يقدر أحد من البشر على تعديلها أو تغييرها ، بل كل من ملك شيئا – في تصوره– فإن مصيره إلى زوال ، يقول النبي ﷺ (**إِنَّ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَرْفَعَ شَيْئًا مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ**)[10] ، فإذا وضعه رجع إلى مالكه الحقيقي ، الله سبحانه – وهو لم

---

1) قال رسول الله ﷺ (الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا) رواه البخاري ج2ص289رقم459
2) رواه أبو داود ج13 ص 28 رقم 4240 وحسنه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير ج22 ص 127 رقم 10627
3) رواه مسلم ج11 ص 87 رقم 3993
4) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج14 ص 27
5) رواه مسلم ج13 ص 286 رقم 4925
6) الديباج علي مسلم ج6 ص 84
7) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ج1 ص 311
8) التيسير بشرح الجامع الصغير ج1 ص 474
9) رواه الحاكم ج1 ص 129 رقم 203 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج2 ص 40 رقم 541
10) رواه البخاري ج20 ص 157 رقم 6020

يخرج عنه – فيعطيه لمن يشاء مرة أخرى فيبتليه به ، قال تعالى (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ **تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء** وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (آل عمران 26) .

قوله (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)(6) دليل على أن الله يجري الزمان حيث يشاء ، ولا يقدر أحد أن يوقف الزمان ، ولا أن يطيل النهار على الليل أو يقصره ، ولا يطيل وقت الليل عن النهار أو يقصره إلا الله سبحانه ، قال تعالى (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (الرحمن 17) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (الرحمن 18) ، فللشمس مطلع في الشتاء غير مطلعها في الصيف ، وكذلك مغربها في الشتاء غير مغربها في الصيف ، وذلك في كل مطلع لها ومغرب على الأرض ، ولذلك قال (فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ) (المعارج 40) ، فسبحانه يختص بالملك والاستيلاء عليه ، والسيطرة والهيمنة ، والقدرة المطلقة ، سبحانه استوى على عرشه ، والإنسان عاجز عن أن يملك وقته أو يدبر أمره ، وما يحيط من حوله (قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (البقرة 258).

قال الله تعالى (..وهو عليم بذات الصدور) (6) ، قال السمرقندي: يعني (بما في القلوب من الخير والشر) [1]، فالآية تؤكد على صدق التوجه إلى الله تعالى ، كما في قوله ﷺ (**مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ**)[2] ، فمن أراد أن يبذل خيرا وهو غير قادر علي ذلك فالله أعمل بنيته ، ومن لم يفعل وهو قادر الله أعلم بقدرته ، فالإيمان بأن الله هو المالك على الحقيقة وأنه هو المتصرف في ملكه ، وأن العبد يتصرف في ملك الله بما يريد مولاه كل ذلك لا يخفى على الله

وهذا التذييل للآية توطئة للانتقال إلى الشوط الثاني من السورة والذي يتعلق بدليل الإيمان والبرهان عليه ، إذ لا يكون ذلك إلا بالإنفاق في سبيل الله تعالى .

---

[1]) بحر العلوم ج4 ص 248
[2]) رواه مسلم ج10 ص 17 رقم 3532

المحور الأول
الإنفاق في سبيل الله برهان الإيمان

وفيه عدة دروس : –

أولا : إنفاق المال برهان الإيمان

ثانيا : الصدقة نور والبخل يحجز المنافق يوم القيامة

ثالثا : القلب محل العمل والبذل

رابعا : ترتيب منازل الصديقين بقدر البذل والعطاء

خامسا : الدنيا تعرقل المتسابقين إلى مغفرة الله عن البذل والعطاء

سادسا : إنزال المصيبة بالناس يكشف لهم حقيقة الدنيا

الدرس الأول
إنفاق المال في سبيل الله برهان إيمان العبد بالله

قال تعالى (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ * وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ) (الحديد/11-7)

يقول صاحب الظلال (إلى جانب السابقين من المهاجرين والأنصار الذين ضربوا أروع مثال عرفته البشرية في تحقيق حقيقة الإيمان في نفوسهم وفي البذل والتضحية بأرواحهم وأموالهم . . . إلى جانب هذه الفئة الممتازة الفذة كانت هناك – في الجماعة الإسلامية – فئة أخرى ليست في هذا المستوى الإيماني الخالص الرفيع ...., وكان من بين المسلمين من لم يدركوا بعد حقيقة الإيمان الكبيرة , ولم يعيشوا بها ولها كما عاشت تلك الفئة السابقة الخالصة المخلصة لله ، هؤلاء المسلمون من الفئة الأخرى كان يصعب عليهم البذل في سبيل الله ; وتشق عليهم تكاليف العقيدة في النفس والمال ; وتزدهيهم قيم الحياة الدنيا وزينتها ; فلا يستطيعون الخلاص من دعائها وإغرائها ، وهؤلاء – بصفة خاصة – هم الذين تهتف بهم هذه السورة تلك الهتافات الموحية , لتخلص أرواحهم من تلك الأوهاق والجواذب , وترفعها إلى مستوى الحقيقة الإيمانية الكبرى التي تصغر معها كل قيم الأرض , وتذوب في حرارتها كل عوائقها!)[1]

قوله (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) (7) تغير الخطاب القرآني من أسلوب التقرير لصفات الله تعالى وأسمائه الحسنى ، ومن استظهار أنه مالك السماوات والأرض إلى

[1]) في ظلال القرآن ج7 ص 119

أسلوب الأمر والتكليف ، حيث **يستتبع الاعتقاد بما تقدم العمل بما أمر** ، فاقتضى الإيمان بالله تعالى ورسوله أن يشرع العبد في البذل والعطاء في سبيل الله تعالى ، لذا اقترن الأمر بالإيمان بالأمر بالإنفاق في سبيل الله تعالى ، ولذلك يقول النبي ﷺ (**الصدقة برهان**) [1] ، أي أنها دليل الإيمان ، فالإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل .

قال مجاهد في قوله (مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) (مُعَمَّرِينَ فِيهِ)[2] قال الفراء أي (مملكين فيه) [3]، قال الماوردي :أي (مستخلفين بأداء حقوقه)[4]، فالله استخلف الإنسان في الأرض ليعمرها للنفع العام ، كما في قول النبي ﷺ (**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ**)[5]، فنفع المسلم يتعدى غيره من إنسان وحيوان وطير وبهيمة ، فهذا هو الدين الذي يدين به لله ، وقس على ذلك نفعه في غير الزراعة كالصناعة والتعليم والطب والأدوية والهندسة والحرف وسائر الأمور .

فالعبد حينما يؤمن أن ربه هو مالك الأشياء علي الحقيقة ، ولا مالك غيره ، وأنه منحه إياها ومستخلفه فيها ، حينئذ تصغر في عينه الدنيا ، فلا يبخل بأن يضحي بها طالما أنها لم تكن يوما في قلبه ، وإن جعلها الله في يده ، لعلمه أنها لن تدوم له طويلا ، وإنما مرجعها إلى الله ، عندئذ لا يضن بها لله تعالى ، لا سيما وأن مقابل هذه التضحية جنة عرضها السماوات والأرض ، وهي تضحية بمتاع الدنيا الزائل – والذي استخلفه الله فيها — وهو متاع قليل زهيد – ولم يكن ملكا للإنسان أصلا — والأجر عليه عظيم ، وهو ما أعده الله سبحانه للمؤمنين من الأجر الكبير ، سبحانه ! يعطي النعم ويهبها للعبد ثم يطلب منه أن يبذلها أو يبذل منها ما زاد عن حاجته ثم يجازيه الأجزاء الأكبر في الآخرة ، أي كرم هذا ؟ وأي صفقة رابحة أعظم من ذلك ؟

قوله (وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ..) (8) استخدم القرآن أسلوب التوبيخ والتعجب ممن لا يبادر إلى تجديد الإيمان بالله تعالى ، ويدلل على إيمانه بالعمل الصالح ، فالرسول بينهم ويحضهم على البذل والعمل الصالح وهو بين أظهرهم ، والله يعينهم على طاعته ، فما أيسر التكليف إذا وجدت في مثل هذه الظروف .

في حين أن أناس لم يروا النبي ﷺ ولم يجدوا لهم معينا ولم يجدوا من يربط على قلوبهم ويأخذهم عليهم الميثاق يأتون بعد عصر الصحابة فيبذلون الجهد والمال في سبيل الله ، يؤمنون بالله ويصدقون دعوة رسوله للإيمان .

فعن رسول الله ﷺ قال: (يا أيها الناس من أعجب الخلق إيمانا ؟) قالوا : الملائكة قال : (وكيف لايؤمن الملائكة وهم يعاينون الأمر ؟) قالوا : فالنبيون يارسول الله قال : (وكيف لايؤمن النبيون والوحي ينزل عليهم من السماء ؟) قالوا : فأصحابك يارسول الله قال : (وكيف لايؤمن أصحابي وهم يرون مايرون ؟ ولكن **أعجب الناس إيمانا قوم يجيئون من**

---

[1]) رواه مسلم ج1 ص 203 رقم 223
[2]) رواه البخاري ج15 ص 144
[3]) فتح الباري لابن حجر ج8 ص 628
4) تفسير النكت والعيون : 5 ص 471
5) رواه البخاري ج8 ص 118 رقم 2152

بعدي يؤمنون بي ولم يروني ويصدقوني ولم يروني أولئك إخواني)[1] ، وقال ﷺ (متى ألقى إخواني قالوا يا رسول الله ألسنا إخوانك قال أنتم أصحابي **وإخواني الذين آمنوا بي ولم يروني)**[2].

قوله (..وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) (8) فالنبي ﷺ علم أصحابه حقيقة الإيمان ، وأنها تكون بالإنفاق في سبيل الله وبالبذل والتضحية في سبيل الله تعالى ، وأخذ على أصحابه الميثاق ، بنصرته وتأييده ، فعن الوليد بن عبادة عن أبيه قال (**بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره ، وعلى أثرة علينا)** [3] ، فمن كان يسلم من أصحاب رسول الله كان يأتيه ليبايعه على السمع والطاعة في المنشط والمكره .

فقوله (وعلى أثرة علينا) و(الأثرة الاختصاص بالمشترك)[4] ، أي كانوا يبايعونه على أن يرضوا بما يفعله فيهم من تفضيل غيرهم عليهم في المال والعطية ، ولا يسخطوا ، هو تحقيق لمعنى الإيمان بالله ورسوله ، وترجمة عملية لمفهوم السمع والطاعة لقول النبي ﷺ ودعوته ، حيث يستتبع الإيمان التسليم والإذعان والرضا بتفضيل النبي ﷺ غيرهم – من المحتاجين من المهاجرين وفقراء المدينة – عليهم في العطاء دون أن يصدر منهم أي اعتراض على ذلك ، وهم من قبل قد تصدقوا وبذلوا جهدهم ودماءهم في سبيل الله .

وهو ما يؤكد أن حقيقة الإيمان هي البذل والتضحية في سبيل الله تعالى ، وليس أخذ مقابل على الجهاد في سبيله ، فالقرآن يذكرهم بهذه البيعة ليرسخ في أذهانهم حقيقة الانتماء لهذا الدين ، فلا يكون بمعزل عن بذل كل غال ورخيص في سبيله دون انتظار لمقابل ، ولا يستقيم إيمان دون بذل أو تضحية ، فلو صدق إيمانهم حقا ولو كانوا مؤمنين حقا لفعلوا مثلما فعل الصحابة ، وقد صدق صحابة رسول الله ﷺ في العمل وصدق إيمانهم ، ورضي الله عنهم .

وقيل (الأثرة) : أي (وإن استأثر ولاة الأمور عليك فلم ينصفوك ولم يعطوك حقك)[5] ، كما في الصحيحين عن أسيد بن حضير رضي الله عنه، أن رجلا من الأنصار خلا برسول الله (فقال : ألا تستعملني كما استعملت فلانا ؟ فقال : (إنكم ستلقون بعدي أثرة ، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض)[6] ، فهذا أشد في الابتلاء ، أي يجاهد المرء في سبيل الله ، ولا يأخذ حقه من الغنيمة كما كان يفعل رسول الله ﷺ ، بل ويظل على ذلك ويترك لهم الدنيا ، ولا يتقاعس عن واجبه وإن كان فرضا كفائيا غير متعين ، لعلمه أنه يسد ثغرة على دار الإسلام .

فعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله (إنها تكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها) قالوا : يا رسول الله كيف تأمر من أدرك منا ذلك ؟ قال : **(تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم)** [7]

---

[1]) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج12 ص 87 رقم 12590 والرواية له ، و رواه البزار في مسنده ج2 ص 347وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات 18/13

[2]) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ج5 ص 341 رقم 5494

[3]) رواه مسلم ج 3 ص 1469 رقم 1709

[4]) شرح رياض الصالحين لابن العثيمين ج1 ص 220

[5]) النقول الصريحة في شرح حديث الدين النصيحة ج1 ص 58 جمعه وراجعه : أبو يوسف محمد زايد

[6]) رواه البخاري ج12 ص 149 رقم 3508

[7]) رواه البخاري ج11 ص 436 رقم 3335

فقوله (**تؤدون الحق الذي عليكم**) قال ابن حجر أي (بذل المال الواجب في الزكاة والنفس في الخروج إلى الجهاد عند التعيين ونحو ذلك قوله وسلوا الله حقكم)[1]

وقال النووي (فيه الحث على السمع والطاعة وإن كان المتولي ظالما عسوفا فيعطى حقه من الطاعة ولا يخرج عليه ولا يخلع بل يتضرع إلى الله تعالى في كشف أذاه ودفع شره وإصلاحه)[2]

عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَائِلٍ الْحَضْرَمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ سَأَلَ سَلَمَةُ بْنُ يَزِيدَ الْجُعْفِيُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ قَامَتْ عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَسْأَلُونَا حَقَّهُمْ وَيَمْنَعُونَا حَقَّنَا فَمَا تَأْمُرُنَا فَأَعْرَضَ عَنْهُ ثُمَّ سَأَلَهُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ ثُمَّ سَأَلَهُ فِي الثَّانِيَةِ أَوْ فِي الثَّالِثَةِ فَجَذَبَهُ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ وَقَالَ اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ)[3]

قوله (اسمعوا وأطيعوا) أي أعطوهم ما لهم وإن لم يعطوكم ما لكم

قوله (فإنما عليهم ما حملوا) من المأثم وإثمهم لا يمنع من أدائهم معهم ما عليهم من الحق

قوله (وعليكم ما حملتم) أي فلا يمنعكم من أداء ما عليكم تفريطهم بعدم أداء ما لكم)[4].

يعني (لا يحملكم مخالفتهم لأمر الله أن تخالفوا أنتم أمر الله مثلهم ، بل عليكم السمع والطاعة لهم في غير معصية ، فهذا هو حقهم عليكم ، فلا تقصروا في حقهم لأنهم هم المنوط بهم أداء فروض الكفاية مثل جمع الزكاوات وتوزيعها ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله ، فلا تسقط هذه الفروض لأجل أنكم ظُلمتم من حكامكم ، فهذا شأن وذاك شأن آخر ، فالخروج على الحاكم لأجل سؤال حقكم ، فيه من المفاسد ما يسقط جميع فروض الكفاية ، واعلموا أن طاعتكم لهم هي امتداد لطاعتي التي أخذ عليها أجدادكم من الصحابة الميثاق كما تقدم ذكره .

قوله (هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ..)(9) يمُنَّ الله على عباده المؤمنين أن اختصهم بأن جعل النبي ﷺ بينهم ، وخصهم بأن شرح صدورهم للإيمان بالقرآن ، واجتباهم بالفضل ونعمة الإيخاء ، فأنزل على نبيه وعبده محمد ﷺ ومصطفاه آيات القرآن التي ترشدهم إلى الهدى والحق والطريق المستقيم فيهتدوا بها تاركين الضلال والتيه والظلمات الجاهلية ليخرجوا منها إلى النور والهدى ، فالنور كناية عن كل ما فيه خير وهدى ، والظلمات كناية عن كل ما فيه شر وضلال على وجه الإجمال ، يقول سبحانه (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ **لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) (الأحزاب/43)

فمن تفضل الله عليه بالإيمان واختصه بهذا الفضل فقد ملك خيري الدنيا والآخرة [5]، فلا ينتظر امتلاك غير ذلك من أعراض الدنيا التي لا تغني ولا تسمن من جوع، قال رسول الله ﷺ (لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا)[6] ، إنه الإيمان الذي أشبع الصحابة رضوان الله عليهم واكتفوا به ، فلم يجدوا حرجا أو مانعا لأن يضحوا لأجله بما استخلفهم الله عليه من متاع زهيد.

---

[1]) فتح الباري ج13 ص 6
[2]) شرح النووي على مسلم ج12 ص 232
[3]) رواه مسلم ج9 ص 384 رقم 3433
[4]) محمد علي بن محمد بن علان : دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين
[5]) تفسير أبي السعود ج6 ص 273 ، ابن عجيبة : البحر المديد ج6 ص 244
[6]) رواه البخاري ج9 ص 357 رقم 2583

قوله (..وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)(9) وهو تعبير يوحي بفضل الله تعالى علي المؤمنين ، فالحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة ، فتلك حقا رأفة الله بالمؤمنين ، ورحمته أن جعل فيهم الكتاب يجدونه فيؤمنوا به

أي : (لكثير الرأفة والرحمة بليغهما حيث أنزل كتبه ، وبعث رسله لهداية عباده ، فلا رأفة ولا رحمة أبلغ من هذه)[1]

يقول سيد قطب (**فما الذي يعوقهم عن الإيمان** – حق الإيمان – وفيهم الرسول يدعوهم إلى الإيمان . وقد بايعوه عليه وأعطوه ميثاقهم؟ وما الذي يعوقهم عن الإيمان بالله وهو ينزل على عبده آيات بينات تخرجهم من ظلمات الضلال والشك والحيرة إلى نور الهدى واليقين والطمأنينة؟ وفي هذا وذاك من دلائل الرأفة والرحمة بهم ما فيه)[2]

قوله (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ..) (10) عادت الآيات لأسلوب التوبيخ مرة أخرى ، وذلك بعد فاصلة من منِّ الله بفضله على المؤمنين ، ليؤكد لهم أنهم سواء تصدقوا أو لم يتصدقوا فإن كل ما يمسكونه بأيديهم من هذه الدنيا فإنه سوف يفلت منهم ويصير إلى الله تعالى ، (**فالله هو المالك على الحقيقة**)[3] ، فمتى علمت ذلك حقا وتأكد لك أن كل شيء صائر إليه سبحانه ، فعلام البخل به ، وهو لن يدوم طويلا ؟ قال أبو حيان (هذا من أبلغ البعث على الإنفاق)[4].

قال ابن عجيبة ، ولله درّ القائل[5] ، حيث قال :

يا جَامِعَ الْمَالِ كَمْ تُضَرُّ به ... تَطْمَعُ بالله فِي الخُلُودِ معَهْ

هَلْ حَمَل المالَ مَيِّتٌ مَعَهْ؟ ... أمَا تَارهُ لِغَيْرِه جَمَعَهْ؟!

يقول النبي ﷺ (**وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ**)[6]، يعني (لا تدخر شيئا من الصحة قبل أن يأتيك المرض ، ولا تدخر طاقة قبل أن يأتيك الموت ، وسارع في الخيرات وتقديم المساعدات ، ذلك أن العمر لا يخلو عن صحة ومرض ، فإذا كنت صحيحا فسر سير القصد وزد عليه بقدر قوتك ما دامت فيك قوة بحيث يكون ما بك من تلك الزيادة قائما مقام ما لعله يفوت حالة المرض والضعف) [7].

قوله (لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا) (10) استخدم القرآن أسلوب المقارنة بين حال هذه الفئة التي يراد منها الترقي في درجات الإيمان ، وبين فئة أخرى صدقت وسبقت في الإيمان فأنفقت ما معها في سبيل الله تعالى وقتما كان المسلمون ينتظرون النصر والفرج والفتح من الله ، وذلك سواء قصد بالفتح على وجه الخصوص صلح الحديبية أم فتح مكة ، فكلاهما كان فتحا ، **والمقصود هو الإنفاق عندما كان بالمسلمين شدة وزلزلة ، ولم يكن النصر مؤكدا إلا في يقين تلك الفئة المؤمنة** ، فهذه الفئة التي لم تقدم المال فحسب في سبيل الله تعالى ، وإنما ضحت بأنفسها وقاتلت في سبيل الله تعالى ، فلم تبخل بدمها أن يهراق في

---

[1]) فتح القدير ج7 ص 145
[2]) في ظلال القرآن ج7 ص 128
[3]) البحر المحيط لابن حيان ج3 ص 488
[4]) البحر المحيط ج10 ص 231
[5]) البحر المديد ج1 ص 371
[6]) رواه البخاري ج20 ص 39 رقم 5937
[7]) ذكره الحافظ في الفتح ، المرجع : تحفة الأحوذي ج6 ص 515

سبيل الله ، إنها تستحق حقا أن تنال الثواب الأعظم ، وأن تترقى في درجات الإيمان درجة أعلى من الذين أنفقوا بعدما أظهر الله هذا الدين ، وقاتلوا بعدما فاتهم السبق

يقول الشوكاني (وإنما كانت النفقة والقتال قبل الفتح أفضل من النفقة والقتال بعد الفتح لأن حاجة الناس كانت إذ ذاك أكثر وهم أقل وأضعف وتقديم الإنفاق على القتال للإيذان بفضيلة الإنفاق لما كانوا عليه من الحاجة فإنهم كانوا يجودون بأنفسهم ولا يجدون ما يجودون به من الأموال والجود بالنفس أقصى غاية الجود)[1].

قوله (..وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى..) (10) فبالرغم من التفاضل بين الفريقين ، إلا أن الله وعد كلا الفريقين السابق في الإيمان وقت الشدة ، واللاحقين بإخوانهم بعد الفتح ، بأن لهما الحسنى ، وذلك طالما سلكا طريقا واحدا محدد المعالم ، وهو طريق البذل والتضحية في سبيل الله تعالى كبرهان للإيمان به سبحانه ، فكلاهما بذلوا وقاتلوا ، لكن فريق قاتل وقت الشدة ، وآخر قاتل وقت النصر والفتح .

ونظير ذلك قوله سبحانه (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا) (النساء/95) .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ **جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا** فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نُبَشِّرُ النَّاسَ قَالَ إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ)[2].

(والتسوية تدل على أن **الجهاد فرض كفاية** ، قال ابن الملك هذا يدل على أن الحديث صدر يوم فتح مكة لأن الهجرة قبله كانت فريضة لكل مؤمن في الابتداء)[3]

قال ابن بطال (فيه تأنيس لمن حرم الجهاد فى سبيل الله ، فإن له من الإيمان بالله والتزام الفرائض ما يوصله إلى الجنة ؛ لأنها هى غاية الطالبين ، ومن أجله تبذل النفوس فى الجهاد . فلما قيل لرسول الله : (أفلا نبشر الناس) أخبر ﷺ بدرجات المجاهدين فى سبيله وفضيلتهم فى الجنة ليرغب أمته فى مجاهدة المشركين وإعلاء كلمة الإسلام ، وهذا الحديث كان قبل فرض الزكاة والحج)[4]

قوله (..وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (10) استدراك هام ذيلت به الآية ، للتأكيد على أن معيار الإيمان لا يقف عند حد البذل والعطاء فحسب ،وإنما لابد وأن يكون هذا العمل بإخلاص ، وأن يكون لله ، وذلك حتى لا يبطل بالمنّ والأذى من صاحب العطاء والبذل أو بسبب الرياء ، ولما كانت تلك الأمور التي لا يعلمها إلا الله جاء التقرير بأن الله

---

1) فتح القدير ج7 ص 146
2) رواه البخاري ج9 ص 354 رقم 2581
3) مرقاة المفاتيح للملا علي القاري شرح مشكاة المصابيح ج11 ص 425
4) شرح صحيح البخاري ج5 ص 13

بما نعمل خبير ، فهو وحده سبحانه يعلم من هو المخلص ومن هو غير المخلص ، لا سيما في الصدقات ، قال تعالى **(وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ)** (البقرة 272)

قوله (مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ) (11) اختتمت الآيات شوطها الأخير الذي يحث على الصدقات كبرهان للإيمان بأسلوب الترغيب لتستنهض همم المتصدقين ، فتعرِّف لهم طبيعة العقد الذي يعقدونه مع الله تعالى ، بأنه عقد استقراض ، فالمقرض هو المكلف ، أنت أيها المتصدق الذي لا يملك شيئا وإنما هي نعم الله تعالى يملكها ويمنحها إياك استخلافا ، وسوف يرثها منك ولن تدوم لك ، ما يعني أن يدك عليها يد مستأمن وليست بيد مالك ، فالمالك هو الله ، وإنما أنت مستخلف عليها ، والطرف الثاني في العقد وهو المقترض (الله سبحانه) ، وهو المالك لكل شيء ، وهو المتصرف فيه ، وهو الوارث منك ، يعطيك إياه ثم يستقرضه منك ، وبمقابل أضعاف مضاعفة ، يقول النبي ﷺ **(ما نقص مال عبد من صدقة)** [1]، فهو قرض سماه الله تعالى قرضا حسنا ، لأن الله هو المالك وهو المستقرض في ذات الوقت ، بما يعني أنك لست بمالك حقيقي وليست بمقرض حقيقي ، وإنما أنت فحسب تحت اختبار الله لك ، يختبر كرمك ويبتليك ببخلك ، ذلك هو امتحان الله لنا ، وفوق ذلك كله يختص الله تعالى المؤمن المتصدق بالأجر الكريم ، يقول النبي ﷺ **(لَا يَتَصَدَّقُ أَحَدٌ بِتَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ إِلَّا أَخَذَهَا اللَّهُ بِيَمِينِهِ فَيُرَبِّيهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ قَلُوصَهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ أَوْ أَعْظَمَ)**[2] ، أي يخصه بكرمه يوم القيامة ، أي جنة عرضها السموات والأرض .

[1]) رواه الترمذي ج 4 ص 562 رقم 2225
2) رواه مسلم ج5 ص 191 رقم 1685

الدرس الثاني

الصدقة نور ، والبخل يحجز المنافق عن النور يوم القيامة

قال تعالى (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ * فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)(الحديد/12-15)

قوله (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم..) الصدقة برهان الإيمان ، كما في قول النبي ﷺ (**الصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء**) [1] ، قال المناوي قوله (والصدقة (برهان) أي (حجة ودليل على إيمان المتصدّق)[2]، وقال (حجة جلية على الإيمان) [3]، قال السيوطي (أي حجة على إيمان فاعلها فإن المنافق يمتنع منها لكونه لا يعتقدها)[4]، قال النووي (سميت صدقة لأنها دليل لتصديق صاحبها وصحة ايمانه بظاهره وباطنه)[5]

قال الشيخ عطية سالم (فالصدقة برهان على صدق المتصدق؛ لأنه يوقن بأن عوضها عند الله؛ ولهذا كان المؤمنون يتصدقون بطيب أموالهم، أما المنافقون فكانوا يعمدون إلى ما لا يقبلونه ولا يرتضونه إلا أن يغمضوا فيه)[6].

فالدخول في الإيمان كالاستنارة بالنور ، فيصور القرآن حياة المؤمن في الآخرة ، المؤمن الذي عمل صالحا بأن عمله الصالح من البذل والعطاء هو نوره يوم القيامة ، بل ويظهر أثر النور على وجوههم مؤمنين ومؤمنات ، وينتشر النور ويمتد بين أيديهم وبأيمانهم ، وكأن النور قد تجسد وامتد أمامهم بقدر أعمالهم وسعيهم للخير في الدنيا

فعن عبد الله رضي الله عنه : في قوله عز وجل (يسعى نورهم بين أيديهم) قال : (**يؤتون نورهم على قدر أعمالهم منهم من نوره مثل الجبل وأدناهم نورا على إبهامه يطفىء مرة ويقد أخرى**)[7] .

وعن النبي ﷺ قال (يقول –يعني الرب تبارك وتعالى– ارفعوا رؤوسكم فيرفعون رؤوسهم **فيعطيهم نورهم على قدر أعمالهم** فمنهم من يعطى نوره مثل **الجبل** العظيم يسعى بين يديه ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك ومنهم من يعطى مثل **النخلة** بيده ومنهم من يعطى أصغر من ذلك حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نوره على **إبهام قدميه** يضيء مرة ويطفأ مرة فإذا أضاء قدم قدمه وإذا أطفىء قام فيمرون على قدر نورهم منهم من يمر كطرفة العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من ....) [8] .

---

1) رواه البيهقي في شعب الإيمان ج3 ص 38 رقم 2805 ورواه مسلم في صحيحه ج2 ص 3 رقم 328
2) التيسير بشرح الجامع الصغير ج1 ص 290
3) التيسير بشرح الجامع الصغير ج1 ص 241
4) الديباج على مسلم ج2 ص 11
5) شرح النووي على مسلم ج7 ص 48
6) شرح بلوغ المرام للشيخ عطية محمد سالم 5/124تفريغ موقع الشبكة الإسلامية
7) رواه الحاكم في المستدرك ج2 ص 520 رقم 3785
8) رواه الطبراني ج9 ص 357 رقم 9763 , صححه الألباني : صحيح الترغيب و الترهيب ج 3 ص 257 رقم 3704

فالنور المنبثق يوم القيامة يكون بقدر الأعمال الصالحة ، وبه يعرف النبي ﷺ أتباعه ، قال النبي ﷺ (أعرف أمتي من بين الأمم فقال له رجل : يا نبي الله كيف تعرف أمتك من بين الأمم ما بين نوح إلى أمتك ؟ فقال : أعرفهم محجلون من أثر الوضوء ولا يكون لأحد من الأمم غيرهم وأعرفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم وأعرفهم بسيماهم في وجوههم **وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم)**[1].

وبهذا النور تتميز أمة محمد ﷺ عن غيرها من الأمم ، قال رسول الله ﷺ (إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ **غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ** فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ)[2]، قال أهل اللغة **الغرة بياض في جبهة الفرس والتحجيل بياض في يديها ورجليها** قال العلماء سمى النور الذي يكون على مواضع الوضوء يوم القيامة غرة وتحجيلا تشبيها بغرة الفرس)[3] ، (و"الغرة": غسل ما زاد على فرض الوجه من أطراف الناصية والأذن وبعض العنق، والتحجيل: غسل ما فوق الواجب من اليد والرجل وغايته استيعاب العضد والساق)[4].

قوله (..بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (12) بشرهم الله تعالى بجنة تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، فأينما تحركت قدماه في أي مكان في الجنة وجد الأنهار تجري من تحته .

وكم بشر الله المؤمنين بالجنة ، ولو كان هناك فوز أعظم من الجنة لدل عليه القرآن ، إنها حقا الفوز العظيم ، فحُبِّذ التسارع للفوز بها ، لا التكالب على الدنيا التي ليست محلا للتسابق أو التسارع في اهتمامات المؤمنين .

قوله (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ) (13) أي على النقيض من حال المؤمنين ، ترى المنافقين والمنافقات في صورة مخزية يوم القيامة ، حيث لم يتغير أسلوبهم في النفاق عما كانوا عليه في الدنيا ، فكما أرادوا – في الدنيا– أن يندسوا في صفوف المؤمنين لينجو من عذاب الدنيا ، فإنهم –في الآخرة– يحاولون إعادة الاندساس بين صفوف المؤمنين لينالوا قسطا من النور الذي معهم ، فيخاطبون المؤمنين يوم القيامة (انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ) ، إنها عبارة تثير السخرية منهم ، لكن أنى لهم ذلك ، فاليوم تريدون أن تقتبسوا النور من المؤمنين ، وكنتم في الدنيا تسخرون منهم ، وهل اتبعتموهم فيما ضحوا من أجله لهذا الدين ؟ أم أنكم تريدون النور دون أن تضيئوا شمعته ، لذلك باءت محاولتهم بالفشل ، قال ابن تيمية قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ السَّلَفِ : (إنَّ الْمُنَافِقَ يُعْطَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُورًا ثُمَّ يُطْفَأُ)[5].

فجاء الرد عليهم سريعا وزجرا لهم (ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا) أي هل عدتم إلى الدنيا لتعملوا صالحا ليضيء لكم يوم القيامة ، إنه تكليف بالمستحيل ، حيث انقضى الامتحان وانتهى الاختبار ، فاليوم حساب بلا عمل ، لذا جاء الجزاء أيضا سريعا بالفصل بينهما أي بين المؤمنين والمنافقين ، (فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ) فاليوم يوم تميز بين المؤمنين والمنافقين ، لا اختلاط بينهم كما كان الحال في الدنيا ، ونظير ذلك قوله تعالى (وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ

---

[1]) مستدرك الحاكم ج 2 ص 520 رقم 3784 وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه
2) رواه البخاري ج1 ص 234 رقم 133
3) شرح النووي علي مسلم ج 3 ص 135
4) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ج6 ص 351
[5]) مجموع الفتاوى ج7 ص 274

أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ ....إلى قوله (وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ) (الأعراف46)

وانظر إلى رحمة الله تعالى في قوله (بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ) أي أن هذا السور الذي يفصل بين المؤمنين والمنافقين له باب ، ولعله باب الخروج من النار لمن يُمحَّص منهم عما بدر منه من النفاق **حتى إذا ما مُحِّصَت عنه سيئاته خرج منها** ليدخل الجنة عن طريق هذا الباب ، روي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ يَقُولُ اللَّهُ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ **مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ** فَأَخْرِجُوهُ فَيَخْرُجُونَ قَدْ امْتُحِشُوا وَعَادُوا حُمَمًا **فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الْحَيَاةِ فَيَنْبُتُونَ** كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ أَوْ قَالَ حَمِيَّةِ السَّيْلِ) وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّهَا تَنْبُتُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً) [1]، يقول الحق سبحانه (لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ **وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ** إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا) (الأحزاب/24)
.

قوله (..بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ) (13) ، فهذا السور له باطن وله ظاهر ، فأما باطنه فقبل المؤمنين فيه الرحمة لهم ، تلك الجنات التي بشرهم الله بها ، أما ظاهره فهو قبل هؤلاء المنافقين يعذبون فيه.

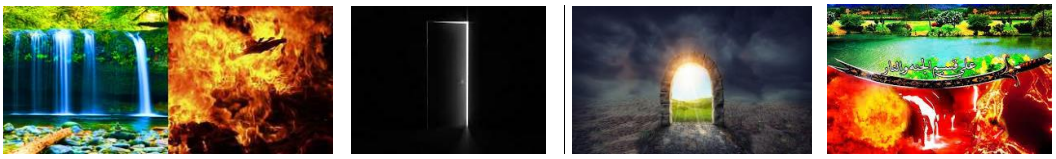

فالمنافقون فارقوا المؤمنين – في الحياة الدنيا – بتخلفهم عن الصدقات وعن الجهاد في مواطن دون أخرى ، مثلما كانوا يتثاقلون عن صلاة العشاء والفجر ، فكانوا معهم ظاهرا ولم يكونوا معهم باطنا ، فيميز الله بين الفريقين يوم القيامة ، ويفصل بينهما بسور باطنه تجاه المؤمنين فيه الرحمة ، أي الجنة ، وظاهره تجاه المنافقين فيه العذاب .

يقول الدكتور فاضل السامرائي (أي أن ظاهره يختلف عن باطنه كما أن المنافقين ظاهرهم يختلف عن باطنهم فهي لمسة فنية غاية في دقيقة التوصيف ، فكما أن المنافقين يخالف باطنهم ظاهرهم ،كذلك السور باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ولم يقل باطنه فيه الرحمة وظاهره فيه العذاب ، لأنهم خارجه) [2].

قوله (..يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ..) (14) يستبين من السياق أن المنافقين كانوا يصلون مع المؤمنين ويصومون معهم ويحجون معهم ، ولكنهم في الآخرة لم يصيروا معهم ، بل ضرب بينهما بسور ، فكان أهل الإيمان في الجنة ،والمنافقون في النار ، ذلك أن عبادتهم لم تكن لله بل كانت نفاقا ولم تكن إيمانا بالله .

فعَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ:"يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ " الْآيَةَ، قَالَ: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ أَحْيَاءً فِي الدُّنْيَا **يُنَاكِحُونَهُمْ وَيُعَاشِرُونَهُمْ**، وَكَانُوا مَعَهُمْ أَمْوَاتًا، وَيُعْطَوْنَ النُّورَ جَمِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، **فَيُطْفَأُ نُورُ الْمُنَافِقِينَ** إِذَا بَلَغُوا

[1]) رواه البخاري ج20 ص 224 رقم 6075
[2]) لمسات بيانية ج1 ص 217

السُّورَ، يُمَازُ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ، وَالسُّورُ الْحِجَابُ فِي الْأَعْرَافِ، فَيَقُولُونَ: " انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا "[1].

لكن يخف من حدة الموقف من لم يكن منافقا خالصا ، وكانت فيه خصلة من نفاق فتطهر منها بالتمحيص في النار ، فهذا تجوز شفاعة المؤمنين في حقه يوم القيامة ، فعن رسول الله ﷺ قال (إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ النَّارِ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا **مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً لِلَّهِ فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمْ الَّذِينَ فِي النَّارِ** يَقُولُونَ رَبَّنَا **كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ** فَيُقَالُ لَهُمْ أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النَّارِ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَخَذَتْ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ فَيَقُولُ ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا ثُمَّ يَقُولُ ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَدًا ثُمَّ يَقُولُ ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا)[2] .

قوله (..قَالُوا بَلَى..) (14) فكانت الإجابة هو تصديق حضورهم معهم في الصلوات والحج والجهاد ، فإن كانوا يشاركونهم في الصدقات ومواطن الجهاد فلم تكن نيتهم لله عند تلك المشاركة ، فأحبط الله أعمالهم ، فعَنْ قَتَادَةَ"**وَاللَّهِ لَوْلا النَّاسُ مَا صَلَّى الْمُنَافِقُ، مَا يُصَلِّي إلا رِيَاءً وَسُمْعَةً**"[3].

والمؤمنون –في الدنيا –لم يلحظوا تخلف المنافقين عنهم وقت الشدة ، لأنهم كانوا يحلفون لهم ويبدون الأعذار ، والمؤمنون كانوا يعاملونهم بظاهر حالهم ، لكن المؤمن الصادق لا يتخلف – أبدا – عن إخوانه المؤمنين وقت الشدة ، بينما المنافقون تجدهم يتخلفون في مواطن الإنفاق عندما تقل مواردهم ، ويتخلفون عن الجهاد إذا ظنوا فيه الهلكة ، وهنا ينادي المنافقون المؤمنين أن استشفعوا لنا عند ربنا ألم نكن نصلي معهم ، ألم نكن نصوم معكم ، ونحج معكم ، قال ابن كثير أي: (ينادي المنافقون المؤمنين: أما كنا معكم في الدار الدنيا، **نشهد معكم الجمعات**، ونصلي معكم الجماعات، **ونقف معكم بعرفات، ونحضر معكم الغزوات**، ونؤدي معكم سائر الواجبات؟ (قَالُوا بَلَى) أي: (فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين: بلى، قد كنتم معنا)[4].

قوله (وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ) (14) بيان تفصيلي لسبب هلاكهم في النار فترة التمحيص – إن جاز لهم الخروج – حيث يعزى ذلك إلى أنهم فعلوا أربعة أمور كانت هي سبب نفاقهم في الدنيا وشقائهم في الآخرة وحرمانهم من النور الذي خص الله المؤمنين به يوم القيامة .

---

[1]) تفسير ابن أبي حاتم ج12 ص 285
[2]) رواه مسلم ج1 ص 427 رقم 269
[3]) تفسير ابن أبي حاتم ج4 ص 408
[4]) تفسير ابن كثير ج8 ص 18

فالإيمان الذي يقبله الله تعالى لابد وأن يكون خالصا لوجهه الكريم ،كما أنه لا يقبل التجزئة ،كما في قوله (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) ، فالإيمان لا يقبل إلا جملة واحدة ، أي لا يجوز اختزال الإيمان في شعائر تختار دون غيرها ، بل هو التزام بالدين كله ، ما يعني وجوب تقديم الصدقات للبرهان عليه ،(وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) ، ولا يقتصر الأمر على ذلك ، بل يجب أن تكون الصدقات توطئة لبذل الدماء في سبيل الله .

فالأمر الأول (فتنة [1]أنفسهم) : قال أبو حيان أي (عرضتم أنفسكم للفتنة بنفاقكم)[2] ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ فِي قَوْله تَعَالَى : "وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ" يَعْنِي (بِالشَّهَوَاتِ)[3] ، وذلك بسبب الانشغال بها عن الآخرة ، بالنهم في طلب المزيد والمزيد ، لا لأجل الشكر ، ولكن لأجل المتاع والمتعة ، فحملوها من البلاء ما لا تطيق ، قال تعالى (**فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ**) [لقمان: 33] ، فلما جاءهم المزيد غبنوا أنفسهم وظلموها ، إذ بخلوا بما آتاهم الله من خير فلم ينفقوه في سبيل الله ، يقول سبحانه (قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا **أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ** وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (التوبة/24) .

فطلب المزيد مع قلة الشكر فتنة على العبد ، عَن ابنِ عباس رفعه قال : (منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا)[4] ، يقول النبي ﷺ (قَالَ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ)[5]، ولنا في قصة الأعمى والأبرص والأقرع موعظة ... لما طلبوا المزيد من الدنيا ولم ينجوا منهم إلا الأعمى لما جاءه ملك —في صورة رجل– بعد أن رد الله عليه بصره فقال له (رجل مسكين وابن سبيل وتقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري) فقال (قد كنت أعمى فرد الله بصري وفقيرا فقد أغناني فخذ ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخدته لله) فقال له الملك (أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك) ، علم الأعمى أن الملك كله لله ، وأنه لا يملك شيئا من ملك الله فلم يبخل به على عباد الله تعالى ، بخلاف حال صاحبيه الأبرص والأقرع ، حيث قالا (قد ورثت المال لكابر عن كابر) ومنعا الصدقة) [6].

والسبب الثاني : هو **تربص المنافقين بالمؤمنين الدوائر** أي السوء ، قال تعالى (وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ) [التوبة:98]، يقول سبحانه (إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)(آل عمران/120) ، لكن الله تعالى يرد كيدهم وتمنيهم الشر للمؤمنين ، فيقول سبحانه (قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ)(التوبة/52) ، فأقصى شر يظنه المنافقون بالمؤمنين هو أن يقتلوا في الجهاد ، وهذه أولى الحسنيين الموت في سبيل الله تعالى والاستشهاد في سبيله ، والأخرى وهي النصر على أعداء الله ، فهل يتربص المنافقون بالمؤمنين إحدى الحسنيين أن يستشهدوا في سبيل الله.

---

1) الفِتْنة الابتلاء والامْتِحانُ والاختبار وأصلها مأْخوذ من قولك فتَنْتُ الفضة والذهب إِذا أَذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيِّد وفي الصحاح إِذا أَدخلته النار لتنظر ما جَوْدَتُه ودينار مَفْتُون والفَتْنُ الإِحْراقُ ومن هذا قوله عز وجل يومَ هم على النار يُفْتَنُونَ أَي يُحْرَقون بالنار ويسمى الصائغ الفَتَّان وكذلك الشيطان

[2]) البحر المحيط ج10 ص 234 ، التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ج1 ص 2323

[3]) أدب الدنيا والدين ج1 ص19

[4]) رواه البزار ج2 ص 174 وصححه الألباني : صحيح وضعيف الجامع الصغير ج24 ص 70 رقم 11570

5) رواه مسلم ج5 ص 276 رقم 1746

[6]) انظر الحديث كاملا في صحيح البخاري ج 3 ص 1276 رقم 3277

والسبب الثالث : **الريبة والشك في دين الله** تعالى ،فهؤلاء المتشككون المرتابون لم يستقر لهم إيمان بعد ، كما وصفهم الله تعالى (وَارْتَبْتُمْ)، أي(مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) ، وكما قال فيهم (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)(الحج/11) ، فهم لا يثقون في نصر الله تعالى عباده المؤمنين ، وقد قال (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) ، لا يثقون في تحقيق وعده بل ويخشون الدوائر ولا يحتسبون الأمر لله ، يقول سبحانه (مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ) (الحج/15) ، حالة الريبة والشك التي يعيشون فيها حرمتهم من النور الذي أضاء للمؤمنين .

والسبب الرابع : أن **غرتهم الأماني** ، وأغرهم الشيطان وأغواهم بكثرة الأماني ، فزين الدنيا لتقع محببة لقلوبهم ، فاغتروا بها وآثروها على الآخرة ، وأجلوا التوبة تمنيا أن يغنموا من الدنيا ما يشبعون به نهمهم منها ثم حين يقل النهم لكبر السن أو ضعف الجسد أو الابتلاء بمرض يشرعون بعد ذلك في التوبة والإنابة ، ففاقت الأماني حدود الأجل ، فعن عبد الله رضي الله عنه قال :خط النبي ﷺ خطا مربعا وخط خطا في الوسط خارجا منه وخط خططا صغارا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط وقال (هذا الإنسان وهذا أجله محيط به ، وهذا الذي هو خارج أمله وهذه الخطط الصغار الأعراض فإن أخطأه هذا نهشه هذا وإن أخطأه هذا نهشه هذا) [1] ، فلو استطاع هؤلاء البخلاء أن يلعبوا ويمرحوا كما يشاءون حتى إذا اقترب أجلهم بادروا بالتوبة والإنابة لضمنوا النجاة من عذاب الآخرة لكن أماني الإنسان تستطيل إلى بعد منتهى أجله .

قوله (فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (15) جمع الله المنافقين والكافرين في سواء المصير ، فبعد أن عرض المولى سبحانه الأسباب التي حرمت المنافقين من النور ، بين لهم مصيرهم يوم القيامة بأنه إلى النار ، وهو ذات مصير الكافرين ، (إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا) (النساء/140) ، فلا بديل عنه ولا محيص ، ولا مساومة عليه ، ولا فداء لهم ولو ملك المنافق الدنيا كلها فإنه لا يملك أن يفدي نفسه من عذاب الله تعالى ، يقول سبحانه (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ **لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ** مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (المائدة/36) ، وعن النبي ﷺ (يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به ؟ فيقول : نعم ؟ فيقول الله : كذبت **قد أردت منك أهون من ذلك** قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئا فأبيت إلا أن تشرك)[2] .

فلم يقبل منهم إيمان خال من الإخلاص ، ، فلأنهم أخذوا من الدين ظاهره وتركوا باطنه أو تركوا بعض أركانه فقد أشركوا بالله تعالى ، فكان مصيرهم النار ، فالإسلام كل لا يتجزأ يقول سبحانه (إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا) (النساء/48).

---

[1]) رواه البخاري ج 5 ص 2259 رقم 6054

[2]) رواه أحمد في مسنده ج3ص127 رقم 12311 وصححه شعيب الأرنؤوط وقال إسناده صحيح على شرط الشيخين ، وصححه الألباني انظر الجامع الصغير ج 1 ص 1409 رقم 14083

الدرس الثالث

القلوب تنهض للبذل والعمل الصالح عندما تستفيق

قال تعالى (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ * اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (الحديد/16-17)

قوله (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ) أسلوب استفهامي تقريري الغرض منه الاستنكار [1]، أي استنكار علي الذين قالوا إنا آمنا ، وقلوبهم لا تزال بعيدة عن الخشوع عند سماع الذكر أو تلاوة القرآن، فتضمن تذكيرا وتنبيها بعدما طالت الغفلة أن حان وقت الاستفاقة منها .

قال القرطبي قيل: أنها (**نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة**)[2]... فعلى هذا التأويل يكون الذين آمنوا في العلانية باللسان) ، قال السدي وغيره: (ألم يأن للذين آمنوا) بالظاهر وأسروا الكفر)[3].

والصحابة فهموا هذه الآية على عمومها ، وإن نزلت في المنافقين خصوصا ، فعن ابن مسعود قال (**ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين**) [4]،[5] أي قد حان الوقت لأن تخشع القلوب لله ، ليتمكن الإسلام من المسلمين قلبا وقالبا ، فليست العبادة المقصودة هي حركة الأبدان والأجساد دون توجيه القلب لله ، والمقصود إخلاص القلب لله ، قال رسول الله ﷺ (إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ **وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**)[6]، وفي رواية (إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ **وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ** وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ)[7] .

قال أبو جَعْفَرٍ – الطحاوي- فَطَلَبْنَا السَّبَبَ الذي من أَجْلِهِ عُوتِبُوا بِمَا في هذه الآيَةِ فَوَجَدْنَا ما روي عن مُصْعَبِ بن سَعْدٍ عن سَعْدٍ في قَوْلِ اللهِ عز وجل (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْك أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إلَيْكَ هذا الْقُرْآنَ) الآيَةَ قال أَنْزَلَ اللَّهُ على رَسُولِهِ فَتَلَاهُ عليهم زَمَانًا فَقَالُوا يا رَسُولَ اللهِ لو قَصَصْتَ عَلَيْنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ عز وجل (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ) الآيَةَ قال فَتَلَاهُ عليهم رسول اللهِ ﷺ فَقَالُوا يا رَسُولَ اللهِ لو حَدَّثْتَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ) قال كُلُّ ذلك يُؤْمَرُونَ بِالْقُرْآنِ .. قالوا يا رَسُولَ اللهِ (لو ذَكَّرْتَنَا) فَأَنْزَلَ اللَّهُ عز وجل (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ) قال أبو جَعْفَرٍ فَكَانَ في هذا الحديث سُؤَالُهُمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ الْقَصَصَ عليهم أَيْ لِتَلِينَ بِذَلِكَ قُلُوبُهُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عز وجل عليه (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ) فَأَعْلَمَهُمْ عز وجل أَنَّهُ **لاَ حَاجَةَ بِهِمْ إلَى الْقَصَصِ مع الْقُرْآنِ** لأَنَّهُ لاَ يَقُصُّ عليهم أَنْفَعَ لهم منه ثُمَّ سَأَلُوا أَنْ يُحَدِّثَهُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عز وجل عليه في ذلك ما أَنْزَلَ عليه من

---

[1]) الإتقان في علوم القرآن للحافظ السيوطي مجلد 3 ص 237 مكتبة التراث
[2]) قاله الكلبي ومقاتل : انظر النيسابوري في الكشف والبيان ج9 ص 239 الماوردي : النكت والعيون ج4 ص 236 ،
[3]) تفسير القرطبي ج17 ص 249
[4]) رواه مسلم ج 4 ص 2319 رقم 3027
[5]) تفسير أبي السعود ج6 ص 277
[6]) رواه مسلم ج12 ص 527 رقم 4651
[7]) رواه مسلم ج12 ص 526 رقم 4650

أَجْلِهِ مِمَّا ذُكِرَ فِي هذا الحديث (**وَكُلُّ ذلك يَرُدُّهُمْ إِلَى الْقُرْآنِ**) لأَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ إِلَى شَيْءٍ يَجِدُونَ فيه الذي يَجِدُونَ في الْقُرْآنِ وَاللَّهَ سُبْحَانَهُ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ)[1]

فالمعنى المراد إيصاله هو وجوب تهيؤ القلوب إلى الدخول في الإيمان حقا ، لأن المرحلة المدنية فيها كثير من الاختبارات والابتلاءات والغزوات والامتحانات التي إن لم تصادف قلبا صادقا ، فإن تقلب القلب بين عشية أو ضحاها في ظل هذه الفتن أمر جاز وممكن ، فإن جاز قبول النطق بالشهادتين من كل أحد ، ومنذ هذه اللحظة يطلق عليه لفظ "مسلم" بيد أن للإيمان متطلبات لابد وأن يستكملها العبد ، فالإسلام يعني بالحالة القلبية للمسلم ، ليصير القلب في حالة الخشوع للذكر ، تلك هي الحالة النفسية التي يتطلبها الإسلام في المسلمين حتى يثمر الإسلام –الذي في قلوبهم– ثمرته ، بأن **يخشع** القلب لله ، فيتأثر بالذكر تأثرا تقشعر منه الجلود ، وتلين له القلوب وتذرف له العيون الدمع ، **فتتحرك** الجوارح والأعضاء لنصرة هذا الدين ، قال الله تعالى (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ) (ص29)

وقد سبق أولو العلم لذلك المعنى ، كما قال الله (وَلِيَعْلَمَ **الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ** وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (الحج54) ، فخشوع القلب **ينعكس** على عمل الجوارح ، فحين يخشع القلب لذكر الله يستجيب لنداء الله فيتحرك للبذل والعطاء والنفع العام مثلما تثمر الأرض فتنفع الناس .

فحقيقة تجديد الإيمان الدخول فيه مجددا في كل لحظة ، وكأنك تعيش لحظة دخولك الإسلام أول مرة في كل حالة ذكر وعبادة لله ،وبذلك يتذوق العبد حلاوة الإيمان ، ولا يتأتى هذا التجديد للإيمان إلا بخشوع القلب لله تعالى .

قوله (وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) نهت الآية عن الاقتداء باليهود والنصارى لقساوة قلوبهم ، محذرة الفئة المؤمنة أن تتأسى بأخلاقهم ،وهم الذين اتبعوا موسى للنجاة من فرعون ، فصاروا مؤمنين ثم تقلبت قلوبهم لفتنة العجل فعبدوه وصاروا كافرين ، بعدما كانوا في الصباح مؤمنين ، وبعدما أنزلت عليهم التوراة والإنجيل ، قالوا لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون..وهكذا لم يتنفعوا منها بشيء ، ولما طال عليهم الزمان قست قلوبهم فحرفوها وبدلوا الكلم عن مواضعه ، وذلك لما خالفت أهواءهم وشهواتهم.

إذن القلب الحي الذي يتفاعل مع الأحداث بالإيمان هو ذلك القلب الخاشع الذي يريده الله من المسلمين ، فيحثه على أن يجلوه قبل أن يصدأ كما يصدأ الحديد ، والقلوب إذا لم يتم جلاؤها بالذكر فإنها تصدأ بالتعلق بالدنيا والركون إليها ، ولذلك يقول ﷺ (إنه ليغان[2]على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة)[3]

---

[1]) شرح مشكل الآثار ج3 ص 195

2) قال أهل اللغة الغين والغيم بمعنى واحد والمراد هنا ما يتغشى القلب قال القاضي قيل المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي شأنه الدوام عليه فإذا افتر عنه أو غفل عد ذلك ذنبا واستغفر منه

[3]) رواه مسلم ج 4 ص 2075 رقم 2702

ولذلك نزلت الدعوة من الله تعالى لتجديد الإيمان به والانتظام مع الكون في منظومة الذكر والتسبيح له ، فلا تطول المدة بين مرتي الذكر وإلا كانت العاقبة وخيمة ، ألا وهي قسوة القلب عن التفاعل والتأثر بما يجب على المسلم عمله ، فيتكاسل عن فروض الكفاية ، ويقصر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،وعن البذل والعطاء لله ، قال الورتجبي (مَن أصرَّ على المعصية أورثه التمادي على الضلالة ، حتى يرى قبيح أفعاله مستحسناً ، فإذا رآه مستحسناً يستكبر ، ويعلو على أولياء الله ، ولا يقبل بعد ذلك نصحتهم)[1].

فالذين أوتوا الكتاب أعلنوا دخولهم الإسلام ولعلهم مارسوا عباداتهم وتعودوا على ممارستها حتى **أضحت العبادة عادة فارغة من عمل القلب** أو ليس للقلب حظ منها إلا قليل ، وأثر ذلك بدا جليا عندما أمرهم الله بالنفير في سبيله ، فتخاذلوا وامتنعوا عن نصرة دين الله ، وقد قارن الله قساوة قلوبهم بقساوة الحجارة فقال عز وجل (**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً** وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (البقرة/74) ، حيث ترتب على هذه القساوة أن قتلوا الأنبياء ، فصارت الفتن بالنسبة لقلوبهم كالهواء الذي يتنفسونه ، يقول النبي ﷺ (**تعرض الفتن على القلوب** كالحصير عودا عودا **فأي قلب أشربها** نكت فيه نكتة سوداء **وأي قلب أنكرها** نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا **لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه**) [2] ، مؤدى ذلك ولازمه هو الوصول بالقلب إلى حالة الفسق تلك الصفة التي وصمت بها الآية قساة القلوب ، بعدما غفلوا عن ذكر الله تعالى ولم يجددوا إيمانهم بالتوبة والإنابة والاستغفار لله ، قال تعالى (أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ **يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ**) (التوبة 126).

قوله (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) هذا مثال ضربه الله لإيضاح كيف يؤثر الخشوع على القلوب ، فشبه القلب بالأرض الميتة التي لا زرع فيها ولا ماء – سبحان الله – يحيها الله تعالى بعد هذا الموات فينبت منها الزرع ، كذلك القلوب الميتة التي تحيا بذكر الله تعالى ، (أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (الرعد/28) ، فلا تستعجب أن ترى رجلا كان يعصي الله في الماضي وكان قلبه قاسيا شديد القساوة ثم تجده بين مرة وأخرى يبكي من خشية الله تعالى ، فعن النبي ﷺ قال (إن **القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبهما كما يشاء**) [3] .

ولا عجب من أن نرى مجتمع الصحابة رضوان الله عليهم كان منهم قبل إسلامه الذي يقتل بنته ويشرب الخمر ويزني بالنساء ، ثم هم هم وبعدما استمعوا لذكر الله وأنصتوا لما يتلى عليهم أسلموا وخشعوا لله ، بل وتقدموا صفوف المدافعين عن هذا الدين ، فتغيرت حياتهم ولانت قلوبهم وحيت بذكر الله ، وهبوا لنصرة دين الله ، وما حدث قديما ، قد حدث حديثا ، وسوف يحدث مستقبلا ، فترى أمما كانت تعيش في جاهلية لكنها لما سمعت ذكر الله تعالى حيت به ، إنها حقا آيات بينات ، جعلها الله سببا لتعقل التأثير المعجز لخشوع القلب ، فيحول بالذكر من حجر قاسي إلى قلب يتدفق منه الدم ، ومن أرض ميتة إلى أرض خصبة ينبت فيها الزرع ويعم بها الخير .

---

1) البحر المديد ج6 ص 419
[2]) رواه مسلم ج1 ص 128 رقم 144
[3]) رواه الترمذي ج 4 ص 448 رقم 2140 وصححه الألباني

فأما زنا بعضهم بالنساء قبل إسلامه ، فعن عَمْرُو بْنُ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ كَانَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ مَرْثَدُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ وَكَانَ رَجُلًا يَحْمِلُ الْأَسْرَى مِنْ مَكَّةَ حَتَّى يَأْتِيَ بِهِمْ الْمَدِينَةَ قَالَ **وَكَانَتْ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ بِمَكَّةَ يُقَالُ لَهَا عَنَاقٌ وَكَانَتْ صَدِيقَةً لَهُ** وَإِنَّهُ كَانَ وَعَدَ رَجُلًا مِنْ أُسَارَى مَكَّةَ يَحْمِلُهُ قَالَ فَجِئْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى ظِلِّ حَائِطٍ مِنْ حَوَائِطِ مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ قَالَ فَجَاءَتْ عَنَاقٌ فَأَبْصَرَتْ سَوَادَ ظِلِّي بِجَنْبِ الْحَائِطِ فَلَمَّا انْتَهَتْ إِلَيَّ عَرَفَتْنِي فَقَالَتْ **مَرْثَدٌ** فَقُلْتُ مَرْثَدٌ فَقَالَتْ **مَرْحَبًا وَأَهْلًا هَلُمَّ فَبِتْ عِنْدَنَا اللَّيْلَةَ** قَالَ قُلْتُ **يَا عَنَاقُ حَرَّمَ اللَّهُ الزِّنَا** ، قَالَتْ يَا أَهْلَ الْخِيَامِ هَذَا الرَّجُلُ يَحْمِلُ أَسْرَاكُمْ قَالَ فَتَبِعَنِي ثَمَانِيَةٌ وَسَلَكْتُ الْخَنْدَمَةَ فَانْتَهَيْتُ إِلَى كَهْفٍ أَوْ غَارٍ فَدَخَلْتُ فَجَاءُوا حَتَّى قَامُوا عَلَى رَأْسِي فَبَالُوا فَظَلَّ بَوْلُهُمْ عَلَى رَأْسِي وَأَعْمَاهُمْ اللَّهُ عَنِّي قَالَ ثُمَّ رَجَعُوا وَرَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي فَحَمَلْتُهُ وَكَانَ رَجُلًا ثَقِيلًا حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْإِذْخِرِ فَفَكَكْتُ عَنْهُ كَبْلَهُ فَجَعَلْتُ أَحْمِلُهُ وَيُعْيِينِي حَتَّى قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ **أَنْكِحُ عَنَاقًا؟** فَأَمْسَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ شَيْئًا حَتَّى نَزَلَتْ (**الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً** أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا مَرْثَدُ (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ) فَلَا تَنْكِحْهَا)[1]

وأما قتلهم أولادهم سفها أيام الجاهلية ، فقد بلغت قسوة قلوبهم أن كانوا يأدون بناتهم في التراب مخافة أن يلحق بهم العار ، قال تعالى (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ **أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ** أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)(النحل) ، وقال تعالى (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ) (الأنعام 140) .

لكن منهم من كان يعقل قبل الإسلام ويسعى في هذه القضية بكل الوسائل لمنع وأد البنات ، فعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ رَأَيْتُ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ قَائِمًا مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ يَقُولُ يَا مَعَاشِرَ قُرَيْشٍ وَاللَّهِ مَا مِنْكُمْ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ غَيْرِي وَكَانَ يُحْيِي الْمَوْءُودَةَ يَقُولُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ ابْنَتَهُ لَا تَقْتُلْهَا أَنَا أَكْفِيكَهَا مَئُونَتَهَا فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا تَرَعْرَعَتْ قَالَ لِأَبِيهَا إِنْ شِئْتَ دَفَعْتُهَا إِلَيْكَ وَإِنْ شِئْتَ كَفَيْتُكَ مَئُونَتَهَا)[2]

وأما شربهم الخمر قبل تحريمها في الإسلام عَنْ أَبِي النُّعْمَانِ قَالَ كُنْتُ سَاقِيَ الْقَوْمِ فِي مَنْزِلِ أَبِي طَلْحَةَ فَنَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ فَأَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ اخْرُجْ فَانْظُرْ مَا هَذَا الصَّوْتُ قَالَ فَخَرَجْتُ فَقُلْتُ هَذَا مُنَادٍ يُنَادِي أَلَا إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ فَقَالَ لِي اذْهَبْ فَأَهْرِقْهَا قَالَ فَجَرَتْ فِي سِكَكِ الْمَدِينَةِ)[3].

فلما جاء الإسلام وأسلم هؤلاء تحولت قلوبهم بعدما حيَتْ بذكر الله ، واستنارتْ بالإسلام ، فلم نجد أرشد عقولا منهم ،ولا ألين قلوبا ، ولا أحسن أخلاقا ، ولا أرفأ بغيرهم ، ولا أرحم ببعضهم ، وأعدل مع الناس منهم ، وهكذا يغير الدين الطباع والأخلاق إلى أحسنها ، ولكي يتعود الصحابة على هذه الأخلاق كان لابد من فترة انتقالية من أخلاق الجاهلية إلى أخلاق الإسلام ، مثلما حصل مع أبي ذر عندما عير عبده بأمه ، فقال له رسول الله ﷺ (أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ)[4].

---

[1]) رواه الترمذي ج10 ص 457 رقم 3101 وصححه الألباني : صحيح الترمذي ج3 ص 80 رقم 3538
[2]) رواه البخاري ج12 ص 198 رقم 3541
[3]) رواه البخاري ج14 ص 145 رقم 4254
[4]) رواه البخاري ج1 ص 52 رقم 29

وخلال هذه الفترة يتربون على التصبر والاستعفاف والاستغناء والتحلم ...الخ ، يقول رسول الله ﷺ (وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ)[1].

وعن أبي الدرداء قال : (إنما العلم بالتعلم و الحلم بالتحلم ومن يتحرى الخير يعطه ومن يتوقى الشر يوقه)[2].

وعن أبي عمرو بن العلاء قال : كان أهل الجاهلية لا يسودون إلا من كانت فيه ست خصال : (السخاء والجدة والحلم والصبر والتواضع والتأني تمامهن في الإسلام العفاف) [3].

[1]) رواه الترمذي ج7 ص 321 رقم 1947 ورواه مسلم ج5 ص 274 رقم 1745
[2]) رواه البيهقي ج7 ص 398 رقم 10739 وحسنه الألباني ج1 ص 670 رقم 342
[3]) رواه البيهقي في شعب الإيمان ج7 ص 440 رقم 10899

الدرس الرابع
ترتيب منازل الصديقين بقدر البذل والعطاء

قال تعالى (إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) (الحديد/18-19)

كثير ما يستعمل القرآن أسلوب الترغيب لتحفيز الصالحين على الإقبال على الصالحات والإسراع فيها ، وحينما يستعمل هذا الأسلوب يراعي النفس البشرية التي جبلت على المكافأة والجائزة ، فتراها تنهض عندما تعلم أن ثمة حوافز لما تعمله وأن مزيدا من المكافآت إذا أحسنت ، فيخاطب القرآن المصدقين والمصدقات ، وهما اللذين دأبا على الصدقة ، وهما كذلك الذين صدقوا بالإيمان بالله ورسله ، فلا ينفك التصديق باليوم الآخر عن بذل الصدقات في سبيل الله ، بأن لهم الأجر المضاعف عما بذلوه في سبيل الله ، يقول النبي ﷺ (وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ) أي برهان للإيمان ، ولذلك وصل أهل الصدقة إلى درجة الصديقين والشهداء وإن لم يموتوا بالقتل في سبيل الله ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : إن الرجل ليموت على فراشه وهو شهيد ثم تلا (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم)[1] أي نبياتهم ،وجهادهم بأموالهم وأنفسهم وإن لم ينالوا الشهادة ، وهؤلاء لهم النور التام يوم القيامة .

وعلى النقيض منهم نجد أن الذين كفروا وكذبوا ، أي ضموا إلى الكفر محاربة الله ورسوله بداية بتكذيب ما أخبر به من آيات ، فأولئك لهم عذاب الجحيم .

قوله (إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ) يشمل الخطاب هنا الذكور والإناث على وجه التخصيص ،كل على حدة ، وليس علي وجه العموم والتضمن كما هو الحال في دخول النساء ضمن خطاب الله المؤمنين ، بل ذكرهن وأفردهن بالذكر تفصيلا ، إشارة من الله تعالى إلى أن معشر النساء معنيات بهذا الأمر كذلك مثلن مثل الرجال ، إذ عليهن الإسراع في هذا المجال ومشاركة الرجال بالصدقات من أموالهن كذلك ،

فإن لم يكن لها مال خاص بها وأنفقت من مال زوجها فإنه توصيه ابتداء بأن يتحرى الحلال الطيب قبل جلب هذا المال وإدخاله البيت ، فكن نساء السلف يقلن لأزواجهن " اتق الله فينا، إياك وكسبَ الحرام فإنا نصبر على الجوع والعطش، ولا نصبر على حرّ النار وغضب الجبار" ..

فإذا أنفقت من مال زوجها غير مفسدة ، فلها الأجر ، لقول النبي ﷺ (إِذَا أَنْفَقَتْ الْمَرْأَةُ مِنْ طَعَامِ بَيْتِهَا غَيْرَ مُفْسِدَةٍ كَانَ لَهَا أَجْرُهَا بِمَا أَنْفَقَتْ وَلِزَوْجِهَا أَجْرُهُ بِمَا كَسَبَ وَلِلْخَازِنِ مِثْلُ ذَلِكَ لَا يَنْقُصُ بَعْضُهُمْ أَجْرَ بَعْضٍ شَيْئًا)[2] جاء في الشرح (وهذا محمول على إذن الزوج لها بذلك صريحا أو دلالة وقيل هذا جار على عادة أهل الحجاز فإن

[1]) الدر المنثور ج9 ص 421 أخرجه ابن المنذر ،
2) رواه البخاري ج5 ص 245 رقم 1336

عاداتهم أن يأذنوا لزوجاتهم وخدمهم بأن يضيفوا الأضياف ويطعموا السائل والمسكين والجيران فحرض رسول الله ﷺ أمته على هذه العادة الحسنة والخصلة المستحسنة)[1].

ويؤكد هذا المعنى قوله ﷺ **(وَمَا أَنْفَقَتْ مِنْ كَسْبِهِ مِنْ غَيْرِ أَمْرِهِ فَإِنَّ نِصْفَ أَجْرِهِ لَهُ)**[2] ، قال النووي (فمعناه من غير **أمره الصريح** في ذلك القدر المعين ويكون معها **إذن عام سابق** متناول لهذا القدر وغيره ، وذلك **الإذن** الذي قد بيناه سابقا إما **بالصريح** وإما **بالعرف** ، ولابد من هذا التأويل لأنه ﷺ جعل الأجر مناصفة ،وفي رواية أبي داود فلها نصف أجره ، **ومعلوم أنها إذا أنفقت من غير إذن صريح ولا معروف من العرف ، فلا أجر لها بل عليها وزر ، فتعين تأويله)**[3].

وقد دلت السنة على كراهية أن تسأل المرأة زوجها نفقة ليست في استطاعته ، وقد اشتكى النبي ﷺ لأبي بكر وعمر بن الخطاب من سؤال زوجاته النفقة ليست في مقدوره ، فقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ هُنَّ حَوْلِي كَمَا تَرَى يَسْأَلْنَنِي النَّفَقَةَ فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى عَائِشَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا فَقَامَ عُمَرُ إِلَى حَفْصَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا كِلَاهُمَا يَقُولُ تَسْأَلْنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ فَقُلْنَ وَاللَّهِ لَا نَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا أَبَدًا لَيْسَ عِنْدَهُ ثُمَّ اعْتَزَلَهُنَّ شَهْرًا)[4].

وقد ذم الإسلام النساء اللاتي يشغلن أزواجهن بالطلبات والحاجات لمزيد من تحسين الحياة والتنعم بالراحة والرفاهية حتى يثقلنه ما ليس عنده ، فيشعر بالإيذاء المعنوي والإرهاق المادي ، ومن ثم يقصر في الصدقات ، فقال النبي ﷺ (لَا تُؤْذِي امْرَأَةٌ زَوْجَهَا إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنْ الْحُورِ الْعِينِ لَا تُؤْذِيهِ قَاتَلَكِ اللَّهُ فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكِ دَخِيلٌ أَوْشَكَ أَنْ يُفَارِقَكِ إِلَيْنَا)[5].

وقد عبر القرآن الكريم عن الصدقات بالإقراض ، لأن النفس تميل إلى الإقراض أكثر من التبرعات ، حيث جبلت على الإحساس بنقص المال في أعمال التبرعات ، وحفظه عند الغير في الإقراض ، يقول النبي ﷺ **(ما نقص ما عبد من صدقة)** [6] ، لذلك شبه الله عمل الصدقات بمن يقرض المولى سبحانه قرضا حسنا حيث يضاعفه ربه له أضعافا كثيرة ، وعلى قدر نياتهم ، فكأن الصدقات بمثابة وديعة بنكية في خزائن الرحمن يستثمرها الله للمتصدقين والمتصدقات بفضله وكرمه دون حدود غير ما يقيده الإنسان بنيته من حد لبذل الخير ، وسميت **بقرض حسن** للتفرقة بينها وبين القرض الربوي الذي تمحق به البركة ، أما عقد القرض مع الله تعالى فإنه حسنا لأن المالك – في الأصل – لهذا المال هو الله ، وإنما استقرضه من المكلف ليبتليه أيبخل أم يتصدق ، تصديقا بالإيمان بالله ، ولذلك جئت تسمية من يفعل ذلك بأنه صديق ، فإذا جاهد فهو شهيد ، لاصطحابه نية الشهادة وإن مات على فراشه .

---

[1]) تحفة الأحوذي ج3 ص 278
[2]) رواه مسلم ج5 ص 217 رقم 1704
[3]) شرح النووي على مسلم ج7 ص 113
[4]) رواه مسلم ج7 ص 201
[5]) رواه ابن ماجة ج6 ص 168 رقم 2004 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج1 ص 334 رقم 173
[6]) رواه الترمذي ج4 ص 562 رقم 2225 وصححه الألباني ، وفي رواية المسلم (ما نقصت صدقة من مال)ج4ص2001رقم2588

قوله (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ) استأنفت الآيات وصف طائفة المصدقين والمصدقات بأداة الوصل (والذين) أي هم كذلك الذين آمنوا بالله ورسوله ، ذلك أن الصدقة دليل الإيمان ، فمن يتصدق ويؤمن ويجاهد في سبيل الله فقد نال مرتبة الصديقين .

ولذلك أشارت الآية للصديقين والشهداء بلفظ (أولئك) لتبين المرتبة التي وصل إليها إيمانهم ببذلهم العطاء في سبيل الله تعالى إذ تساووا في المرتبة مع الصديقين والشهداء ، ولذلك قرن الله تعالى المصدقين بالصديقين والشهداء في هاتين الآيتين ، ما يعني التلازم بين البذل والعطاء بالمال والنفس والارتقاء لمرتبة الصديق ، يقول النبي ﷺ (**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**)[1].

وقد **سمي الصديق صديقا لكثرة البذل والعطاء والصدقات** ، فالصدقة برهان الإيمان ، قال ابن القيم (أعلى مراتب الصدق : مرتبة الصديقية وهي كمال الانقياد للرسول مع كمال الإخلاص للمرسل)[2]، وانظر إلى **عطف الصديق بالشهيد** ، حيث برهنت الصدقة بالمال على صدق نية الجهاد وعمل الخير ، ولذلك فإن من يكثر الصدقات يقوى برهان إيمانه بأنه لا يبخل أن يهراق دمه في سبيل الله حتى يصل إلى منزلة الصديقين والشهداء ، قال ابن القيم (فمرتبة الصديقية هي أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة ، ولهذا قرنهم الله في كتابه بالأنبياء ، فقال تعالى (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة ، **وهؤلاء هم الربانيون** ، وهم الراسخون في العلم وهم الوسائط بين الرسول وأمته فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته **وحملة دينه**)[3].

قوله (..لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ..) جمع الله لهم بين الأجر والنور ، فأجرهم أن الله أعد لهم منزلة الغرف فوق أهل الجنة ، فعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال:" إن أهل الجنة ليتراءون **أهل الغرف من فوقهم** كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب , **لتفاضل ما بينهم** " ، قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ، قال:"بلى والذي نفسي بيده **رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين** " [4] .

وأما نورهم فإنه لا يفارقهم منذ لحظة استشهادهم ، ذلك أن الشهداء أحياء وليسوا بأموات ، **فقبورهم قناديل مضيئة** معلقة بالعرش ، فعَنْ عَبْدَ اللَّهِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) قَالَ أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ **أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَسْرَحُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ** ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اطِّلَاعَةً فَقَالَ هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا قَالُوا أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا)[5].

---

[1]) رواه الحاكم ج2 ص 91 رقم 2427 وصححه على شرط مسلم ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود ج7 ص 265
2) مدارج السالكين ج2 ص 270
3) طريق الهجرتين ج1 ص 516
[4]) رواه البخاري ج 3 ص 1188 رقم 3083
[5] رواه مسلم ج9 ص 472 رقم 3500

قوله (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) اختصر المولى مصير أولئك الذين لم يصدقوا بالله تعالى وآياته عملا ببذل المال والجهاد في سبيله ، فذكر من كفروا بنعم الله تعالى وكذبوا بآياته ، وأشار إليهم بلفظ (أولئك) أي إنهم الملازمون للجحيم ، فالجحيم مصاحب لهم لا يفارقهم ، بينما الدنيا التي طالما صاحبوها ولازموها قد فارقتهم.

الدرس الخامس

التلهي بالدنيا والتفاخر بها يؤخر المتسابقين لمغفرة الله

قال تعالى (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ[1] نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ * سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (الحديد/20-21)

تمضي الدنيا سريعا وتذهب الأيام ولا تعود ، وتنقضي المتعة وكأنها لحظة ، يخلفها إما راحة نفسية وسعادة أبدية ، أو يخلفها حسرة آنية وندامة فورية ، من هنا لابد وأن نعلم أن اللعب واللهو التفاخر والتكاثر في الأموال والأولاد ليس غاية في ذاته ولذلك فليس مباح بصفة مطلقة ، وإنما هو جائز شرعا في إطار من الترويح عن النفس بعد الكل والتعب من العمل الصالح ، ولذلك فإن حكمه يدور مع تلك الغاية ، أي بحسب ما يرضي ربنا ، فقد يكون **مذموما** ، كما في قوله (**ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ** ، ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ)(غافر/75-76) ، ويكون **ممدوحا** إذا كان من باب الاسترواح من مشقة الطاعات ، والاستقواء لتجديد العبادة ، كما في قوله (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ **وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ) (القصص77) .

قوله (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ) بيَّن القرآن الكريم حقيقة الدنيا بقوله سبحانه (اعلموا) أي احذروا أيها المكلفون بالانشغال عن واجب الجهاد بالمال والنفس ، فهي من الملهيات عن الطاعات ، فاستبان بذلك أنها تؤخر المؤمنين عن التسابق للآخر ، بل على الإنسان أن يعي حقيقة هذه الدنيا التي يمضي لحظات عمره فيها باللعب واللهو الزينة والتفاخر بينه وبين الناس والتكاثر في الأموال والأولاد ، لابد وأن يعلم أنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة ، يقول النبي ﷺ (**لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**)[2] .

والنبي ﷺ بيَّن الفرق بين حال المؤمن والكافر من الدنيا فقال (**الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ**)[3] كناية عن أن المؤمن يحتاج من الدنيا ما يقيم صلبه ليعبد ربه ، بينما الكافر لا يشبع من الدنيا بل يأخذ منها فوق حاجته بسبع مرات ، ما يدل على البون الشاسع بين حاجة المسلم وحاجة الكافر من الدنيا ، ولذلك فإن الذي يأخذ من الدنيا فوق حاجته الضرورية فإنه يقترب من الاقتداء بهذا الكافر ، فإذا اتضح بهذا المثال ذلك علم المسلم ضابط التمتع بالدنيا وما أحل له منها كما في قول النبي ﷺ (**كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة**) [4]، وتفصيل ذلك كله على النحو التالي :-

---

1) أصل الكفر تغطية الشيء تغطية تستهلكه وقال الليث يقال إنما سمي الكافر كافراً لأن الكفر غطى قلبه ..، وتقول العرب للزَّرَّاع كافر لأنه يَكْفُر البَذْر المَبْذورَ بتراب الأرض المُثارة إذا أَمَرّ عليها مالَقَهُ – لسان العرب ج 5 ص 144

2) رواه الترمذي ج8 ص 299 رقم 2242

3) رواه البخاري ج16 ص 497 رقم 4974

4) رواه البخاري ج5 ص 2180 في صدر باب اللباس معلقا ، وسابق للحديث رقم 5446

أولا : (اللعب) الأصل أنه مباح ما لم يتعارض مع واجب أو فريضة ، ويكون ذلك بنية الاسترواح بعد أداء الطاعة ، كما في قول النبي ﷺ **(سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاغْدُوا وَرُوحُوا وَشَيْءٌ مِنْ الدُّلْجَةِ وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا)** [1]، ما يعني أن الاسترواح بعد الطاعة هو السنة ما لم يستغرق وقت طاعة أخرى ، ويعني ذلك كذلك أن اللعب ليس غرض في ذاته ، بل يكون القصد منه تحقيق نية الاسترواح كما تقدم ، ليكون المسلم بعد الاسترواح أنشط على الطاعة ، فعن بكر بن عبد الله قال : **(كان أصحاب النبي ﷺ يتبادحون بالبطيخ ، فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال)**[2].

ثانيا : (اللَّهْو) (ما لَهَوْت به ولَعِبْتَ به وشغَلَك من هوى وطَرَبٍ)[3] ، وقيل أن (اللهو أعم مطلقا من اللعب ، فاستماع الملاهي لهو لا لعب وقيل اللعب ما قصد به تعجيل المسرة والاسترواح به واللهو ما شغل من هوى وطرب وان لم يقصد به ذلك)[4]

واللهو يختلف مفهومه بحسب مجاله ، فاللهو في الأسواق يعني الانشغال بالتجارة ، واللهو في غير فائدة يعني إضاعة الوقت ، وقد حصر الإسلام اللهو المشروع في ثلاثة ، قال رسول الله ﷺ **(لَيْسَ مِنْ اللَّهْوِ إِلَّا ثَلَاثٌ تَأْدِيبُ الرَّجُلِ فَرَسَهُ وَمُلَاعَبَتُهُ أَهْلَهُ وَرَمْيُهُ بِقَوْسِهِ وَنَبْلِهِ)**[5].

واللهو المشروع يصير غير مشروع إذا ما تعارض مع واجب أو فريضة ، ولذلك نهي عن البيع وقت الصلاة ، لاسيما الجمعة ، قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ **وَذَرُوا الْبَيْعَ** ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ... **قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ** وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) (الجمعة/9-11) .

ثالثا (الزينة) والأصل أن يتزين الرجل لأهله ، وكذلك المرأة تتزين لزوجها ، ويجوز أن يتزين الرجل للناس زينة معتدلة لاسيما عند ذهابه للمسجد فيستحب له لبس الأبيض من الثياب ، ويستحب كذلك التطيب والتعطر ، لقول النبي ﷺ « **إِنَّمَا حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ** النِّسَاءُ **وَالطِّيبُ** وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ »[6]

والاهتمام بالشعر من الزينة المستحبة لقوله ﷺ قَالَ (مَنْ كَانَ لَهُ شَعْرٌ فَلْيُكْرِمْهُ)[7]، فإكرام الشعر ترجيله ووضع الدهن – الزيت – عليه من السنة ، فعن جَابِرَ بْنَ سَمُرَةَ سُئِلَ عَنْ شَيْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ كَانَ **إِذَا ادَّهَنَ رَأْسَهُ لَمْ يُرَ مِنْهُ وَإِذَا لَمْ يُدَّهَنْ رُئِيَ مِنْهُ)**[8]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ أَتَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَرَأَى رَجُلًا ثَائِرَ الرَّأْسِ فَقَالَ أَمَا يَجِدُ هَذَا مَا يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ)[9]، وعن عطاء بن يسار قال :كان رسول الله ﷺ في المسجد فدخل رجل ثائر الرأس واللحية فأشار إليه رسول الله ﷺ بيده أن اخرج كأنه يعني إصلاح شعر رأسه ولحيته ففعل الرجل ثم رجع فقال رسول الله ﷺ أليس هذا خيرامن أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان)[10].

---

1) رواه البخاري ج20 ص 99 رقم 5982
2) رواه البخاري ج1 ص 102 رقم 266 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج1 ص 120 رقم 201/266
3) لسان العرب ج15 ص 258
4) تاج العروس ج1 ص 8591
5) رواه أبو داود ج7 ص 34 رقم 2152
6) رواه البيهقي في سننه الكبرى ج7 ص 78 رقم 13736 وصححه لألباني : الجامع الصغير ج1 ص 544
7) رواه أبو داود ج11 ص 215 رقم 3632 وصححه الألباني الجامع الصغير ج1 ص 1144
8) رواه النسائي ج15 ص 353 رقم 5025 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن النسائي ج11 ص 186
9) رواه النسائي ج15 ص 500 رقم 5141 وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي ج11 ص 236
10) رواه مالك في الموطأ ج2 ص 949 رقم 1702 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج1 ص 891

كما أن من السنة التزين بارتداء الثوب الحسن ، وإظهار نعمة الله في الزي دون مبالغة أو خيلاء ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ)[1].

وتطهير الثياب ،كما في قوله (وثيابك فطهر) ، وقوله ﷺ (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ قَالَ رَجُلٌ **إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً قَالَ إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ** الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ)[2] .

أما الإسراف في الزينة فمنهي عنه كلبس الحرير والذهب ، وكذلك التفاخر بالزينة منهي عنه ، فعن النبي ﷺ قال **(مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ أَلْبَسَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَوْبًا مِثْلَهُ زَادَ عَنْ أَبِي عَوَانَةَ ثُمَّ تُلَهَّبُ فِيهِ النَّارُ)**[3].

رابعا : (التفاخر) هو في الأصل عمل غير مشروع ، بل هو نوع من التكبر والخيلاء ، فقد ذم النبي ﷺ التفاخر بوجه عام فقال ﷺ (أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن الفخر في الأحساب والطعن في الأنساب..) [4] ، وفي رواية **(مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ فِي الدُّنْيَا أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ مَذَلَّةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ أَلْهَبَ فِيهِ نَارًا)**[5]

بيد أن الخيلاء **في موطن القتال والجهاد في سبيل الله تعالى مطلب شرعي** وغير منهي عنه لقوله ﷺ (ومن الخيلاء ما يحب الله عز وجل ومنها ما يبغض الله عز وجل.. **والاختيال الذي يحب الله عز وجل اختيال الرجل بنفسه عند القتال وعند الصدقة** والاختيال الذي يبغض الله عز وجل الخيلاء في الباطل) [6]

ولما كان الناس يحبون التباهي بالخيل ، فقد قسم النبي ﷺ تربية الخيل على ثلاثة أحكام فقَالَ (الْخَيْلُ لِرَجُلٍ **أَجْرٌ** وَلِرَجُلٍ **سِتْرٌ** وَعَلَى رَجُلٍ **وِزْرٌ** فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ **فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ** فَأَطَالَ بِهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيَلِهَا ذَلِكَ مِنْ الْمَرْجِ أَوْ الرَّوْضَةِ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٍ وَلَوْ أَنَّهُ انْقَطَعَ طِيَلُهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاثُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهَرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَ كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ فَهِيَ لِذَلِكَ أَجْرٌ **وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغَنِّيًا وَتَعَفُّفًا** ثُمَّ لَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظُهُورِهَا فَهِيَ لِذَلِكَ سِتْرٌ وَرَجُلٌ **رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَنِوَاءً لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وِزْرٌ)**[7].

خامسا (التكاثر في الأموال) ،وحكمه يختلف بحسب النية ، قال ابن القيم (التكاثر فى جمع المال وغيره ألهى الناس وشغلهم عن الآخرة والاستعداد لها وتوعدهم على ذلك فقال تعالى **(ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر)**[8]

لكن التكاثر في الأموال إذا كان بقصد التبرع فذلك خير لقوله ﷺ **(من أنفق نفقة على أهله وهو يحتسبها كانت له صدقة)** [9]، وتكثير المال في الزراعة محمود متى كان لوجه الله ، لقول رسول الله ﷺ **(مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ)**[10].

---

[1]) رواه الترمذي ج10 ص 21 رقم 2744 وحسنه الألباني : صحيح كنوز السنة النبوية ج1 ص 120
2) رواه مسلم ج1 ص 247 رقم 131
[3]) رواه أبو داود ج11 ص 47 رقم 3511 وابن ماجة 10/ 472رقم 3596 ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة ج2 ص 284 رقم 2905
[4]) رواه مسلم ج 2 ص 644 رقم 934
[5]) رواه ابن ماجة ج10 ص 473 رقم 2597 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة 284/2
[6]) رواه النسائي في سننه ج 5 ص 78 رقم 2558 وحسنه الألباني
7) رواه البخاري ج8 ص 193 رقم 2198
[8]) عدة الصابرين ج1 ص 153
9) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 262 رقم 749 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج1 ص 276

أما وضع المال في البنيان بما يزيد عن الحاجة ففيه شبهة ، ويصعب تحري النية الخالصة لله ، قال رسول الله ﷺ (**كل نفقة ينفقها العبد يؤجر فيها إلا البنيان**)[1] أي الزائد عن الحاجة [2]، والمعنى أنه إذا بناه لينتفع به غيره فهو صدقة مقبولة ، كأن يؤجره للغير أو أن يبيعه ليتكسب منه ، أما إذا بناه تكثرا وتفاخرا لنفسه بأن يكون له أكثر من بيت ، فهذا هو موطن الذم ، بل إن التوسع في مساحة البنيان الواحد وعدد الغرف مذموم لقوله ﷺ (**فِرَاشٌ لِلرَّجُلِ وَفِرَاشٌ لِامْرَأَتِهِ وَالثَّالِثُ لِلضَّيْفِ وَالرَّابِعُ لِلشَّيْطَانِ**)[3]، قال المناوي (**لأنه زائد عن الحاجة وسرف** واتخاذه من زخرف الدنيا وذلك مما يرضاه الشيطان فنسب إليه)[4].

سادسا (التكاثر في الأولاد) وذلك باب عظيم من أبواب الخير لقوله ﷺ (**وَتَزَوَّجُوا فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ الْأُمَمَ**)[5]، وهو كذلك من زينة الحياة الدنيا ، لقوله تعالى (**المال والبنون زينة الحياة الدنيا**) ، والواجب تصحيح النية باحتساب الذرية لله تعالى كما فعلت امرأة عمران لما أنجبت مريم فقال (**رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**) (آل عمران/35) ، وعليه فإن أشد ابتلاء يبتلى به العبد أن يبتلى في ثمرة فؤاده ، وخير الحمد أن يسترجع ويحمد الله على ذلك ، قَالَ رسول الله (**إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ** قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي فَيَقُولُونَ نَعَمْ فَيَقُولُ **قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ** فَيَقُولُونَ نَعَمْ فَيَقُولُ مَاذَا قَالَ عَبْدِي فَيَقُولُونَ **حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ** فَيَقُولُ اللَّهُ ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ **وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ**)[6].

أما إذا كان التكاثر في الأولاد من باب الرياء والسمعة والاستقواء بهم فهو باب شر وليس بخير ، مثل صاحب الجنتين ، قال تعالى (وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ **أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا**) (الكهف 34) ، وهذا هو شأن المترفين الصادين عن سبيل الله في كل قرية ، قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ، **وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا** وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) (سبأ 35) .

قوله (..كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا..)(20) شبه القرآن عمر الإنسان الذي هو مجرد لحظات تمضي وتنقضي حلوها بمرها ، بفترة حياة الزهرة ، فحياتها قصيرة ، لا تلبث تزدهر حتى تزبل وتموت ، فمهما استشعر الإنسان الفخر والعزة بالمال والأولاد ومهما اغتر بما ملك ، فإنها لحظات تمضي سريعا ، فذلك شبه بالزرع الذي أعجب الحراث نباته حين كفروا بذرته في الأرض وغطوها بالتراب باذلين طاقتهم في الحرث والبذر بجهد مضني .

10) رواه البخاري ج8 ص 118 رقم 2152
1) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج4 ص 64 رقم 3642 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج6 ص 330
2) شرح سنن أبي داود لعبد المحسن العباد ج27 ص 127 ، فيض القدير للمناوي ج5 ص 47
3) رواه مسلم ج10 ص 448 رقم 3886
4) التيسير بشرح الجامع الصغير ج2 ص 324
5) رواه ابن ماجة ج5 ص 439 رقم 1836 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج1 ص 310 رقم 1496
6) رواه الترمذي ج4 ص 154 رقم 942 صحيح وضعيف سنن الترمذي ج3 ص 21 رقم 1021

وقد سمى القرآن أهل الدنيا الذين يسعون لتعميرها وزخرفتها "كفار" كناية عن الحرث الأرض ودفن البذر فيها ، فأَصل الكفر تغطية الشيء ..، وتقول العرب للزَّرَّاعِ كافر لأَنه يَكْفُر البَذْر المْذورَ بتراب الأَرض المثارة)[1] ، وقال الليث يقال إِنما سمي الكافر كافراً لأَن الكفر غطى قلبه .

فهم يبذلون طاقتهم في الحرث وليس لهم طاقة في الزرع (أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ) (الواقعة 64) ، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ "لا يقولن أحدكم: زرعت ولكن ليقل: حرثت" قال أبو هريرة: ألم تسمع الى قول الله تبارك وتعالى: (**أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ**) (الواقعة/63-64)[2] .

فهؤلاء الحراث ظلوا أوقاتا طويلة يراقبون الزرع حتى يكبر ويزهو ، حتى رأوا يوم حصاده ، فإذا بهم يتفاجئون أنه قد زبل وصار مصفرا ، انقلبت فرحتهم إلى حسرة حينما رأوا هذا النبات الزاهي الذي أعجبهم بعد هياجه وزهوه إذ به قد اصفر ثم صار حطاما ، هكذا الدنيا يظل الناس يحرثون فيها ويسعون جاهدين في عمارتها آملين أن يحصلوا على أكبر متاع منها ، حتى إذا جاء وقت قطف الثمار تزامن ذلك مع ساعة مغادرتها ، وقد أقسم الله على كل شيء بالفناء ، ولا يبقى إلا وجهه ، قال رسول الله ﷺ (**إِنَّ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ**)[3].

وتأمل سرعة تبدل الحال ، فإن الفناء مصاحب للحظة زهو النبات ، فكلما ازدادت الدنيا هياجا وزهوا في أعين الناظرين كلما دل ذلك على اقتراب أجلها ، قال تعالى (**حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ** كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (يونس/24) .

قوله (..وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ..) (20) حرف العطف الـ (واو) توسط بين العذاب الشديد ومغفرة الله تعالى ورضوانه ، فمن رحمة الله تعالى أنه لم يجعل عذابا إلا ومعه رحمة ، فقد كتب الله عنده فوق عرشه أن (رحمتي سبقت غضبي)[4] ، أما تقديم ذكر العذاب الشديد – في هذا الموضع – على ذكر المغفرة والرضوان ، جاء بسبب أن السياق في موطن ذم الدنيا والاغترار بها ، فالقصد من تقدم التهديد تنبيه كل مشغول بالدنيا أنها إلى زوال ، ويعقبها عذاب لمن كانت هي همه وغايته أو يعقبها مغفرة ورضوان إن كانت الآخرة هي هم المتسابقين لها ، أولئك الذي ألقوا التمرات مخافة الالتهاء بتناولها قبل أن يلحقوا بالجنة ، فاختصروا الطريق للجنة وأزالوا كل عقبة أمامها وإن كانت بعض تمرات ، كما فعل عمرو بن حمام حينما ألقى ما بيده من تمرات كان يأكلها ليقبل على الجهاد أي الجنة.

قوله (..وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) (20) أسلوب قصر بأداة النفي (ما) وحصر بأداة الاستثناء (إلا) يفيد القطع بإعلام جميع المكلفين أن متاع الدنيا – الذي ألهى الكثيرين منهم – ليس إلا متاع الغرور ، تحقيرا من شأنها[5] ،

---

1)– لسان العرب ج 5 ص 144
2) رواه ابن حبان في صحيحخ ج13 ص 30 وابن جرير الطبري في التفسير 114/27 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج6 ص 300 رقم 2801
3) رواه أبو داود ج12 ص 425 رقم 4169 ، ومثله في صحيح البخاري ج9 ص 488 رقم 2660
4) رواه البخاري ج 6 ص 2700 رقم 6986
5) فتح القدير للشوكاني

، قال رسول الله ﷺ (إِنَّ **مَوْضِعَ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا** اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ (فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) [1]، قال سعيد بن جبير (متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة ، ومن اشتغل بطلبها فله متاع بلاغ إلى ما هو خير منه) [2]، أي إلى الجنة [3].

وسمي متاع الدنيا بمتاع الغرور لمن انشغل بها عن طلب الآخرة ، لأنه متاع منقطع يغتر به صاحبه فينخدع به ويُغبن فيه ، **فإذا جاءه لم يجده شيئا** فإذا هو سراب خدع الناظرين إليه ، قال ابن كثير في تفسيرها: أي: (هي متاع فانٍ غارٍّ لمن ركن إليه فإنه يغتر بها وتعجبه حتى **يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها**، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة)[4] .

أما من تمتع بالدنيا متاع بلاغ كما ذكر سعيد بن جبير ، فهو الذي لم يفتتن بها ، وقد علم أنها تغر صاحبها ، فتخلى عن صحبتها ، وأضحى فيها كعابر سبيل كما كان يفعل النبي ﷺ ، فعنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ نَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً فَقَالَ **مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**)[5] ، وعلي ذلك فإن المستمتع بالدنيا يأخذ حظه منها بقدر حاجته دون أن يستكثر ، قال تعالى (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) (القصص 77)

فمن فقه حقيقة الدنيا زهد فيها ، وهو ما يعني أن يشارك خدمه ملكه ،كما أشار بذلك قول النبي ﷺ (**أَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ وَأَلْبِسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ وَكَانَ أَنْ أَعْطَيْتُهُ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ حَسَنَاتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)[6] ، بل ويشاركه مجلسه ومقعده ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (**إِذَا كَفَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ طَعَامَهُ حَرَّهُ وَدُخَانَهُ فَلْيَأْخُذْ بِيَدِهِ فَلْيُقْعِدْهُ مَعَهُ فَإِنْ أَبَى فَلْيَأْخُذْ لُقْمَةً فَلْيُطْعِمْهَا إِيَّاهُ**)[7]، قال النووي (وهذا كله محمول على الإستحباب)[8]، وإتيان المستحبات يقرب العبد من ربه .

قوله (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ..) (21) جاءت الدعوة من للتسابق إلى مغفرة الله قبل التسابق إلى الجنة ، باعتبار أنها موجباها ، فإدراك منزلة في الجنة لاحق للحصول علي مغفرة الله ، ويكون ذلك بالتوبة والإنابة والاستغفار وكثرة الطاعات ، فتلك عبادات قلبية فيتوجه القلب مباشرة إلى الله دون أن يخالط النفس البشرية شيئ من حظوظها .

كذلك الصلاة يمحو الله بها الخطايا ، فعن ابن مسعود : أن رجلا أتى النبي ﷺ : فذكر له أنه أصاب من امرأة إما قبلة – أو مسا بيد – أو شيئا كأنه يسئل عن كفارتها قال : فأنزل الله عز وجل (**وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من**

---

[1]) رواه الترمذي ج10 ص 274 رقم 2939 وأخرجه البخاري دون قوله اقرأوا إن شئتم ، وصححه الألباني : صحيح الترمذي ج3ص113
[2]) ذكره الشوكاني عنه في فتح القدير
[3]) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن
[4]) تفسير ابن كثير ج8 ص 25
[5]) رواه الترمذي ج8 ص 382 رقم 2299 وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص 1061
[6]) رواه مسلم ج14 ص 295 رقم 5328
[7]) رواه الترمذي ج7 ص 47 رقم 1776 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج4 ص 353
8) شرح النووي ج11 ص 136

الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) قال فقال الرجل : إلى هذه ؟ قال : هي لمن عمل بها من أمتي)[1].

وبالتزام ذكر الله دبر كل صلاة تحصل المغفرة وينال العبد رضوان الله ، يقول النبي ﷺ [أفلا أعلمكم شيئا **تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم** ؟ ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم قالوا بلى يا رسول الله قال **تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة**] [2].

وفي مجال التسابق للخير ومغفرة الله ورضوانه يحاول كل متسابق أن يجمع الحسنات بقدر ما يستطيع ، فإذا أدى ما عليه من عبادات ، فإنه يبحث عن العادات ليصلحها بالنية فيؤجر عليها ، فيسبق غيره في الحسنات ، فالعبادات التي يكون للنفس حظ منها ، كالزواج والكسب والأكل ..الخ ، فالله يغفر بها الذنوب كذلك إن صلحت النية فيها ، فهي وإن كانت في الأصل عادات ، فإنها تنقلب إلى عبادات بالنية الخالصة لله تعالى ، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ قَالَ أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ قَالَ أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا)[3]

قوله (..وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ..) (21) يحفز القرآن المؤمنين – بأفضل مرغوب فيه عن الدنيا ، فيصف لهم سعة الجنة مبينا مدى اتساع عرضها حتى وسعت الكون كله بسماواته وأرضه ، فكيف بمن عجز أن ينفذ من أقطار السماوات والأرض في الدنيا أن يضحى هذا الكون كله ملكه في الآخرة ، أي أن يكون ذلك نعيمه ، يقول النبي ﷺ (**إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها**) [4]، ويقول النبي ﷺ (**موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها**) [5] .

وقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم هذه الآية ومثلها بمفهوم عملي ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ لما دَنَا الْمُشْرِكُونَ ببدر قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ) قَالَ يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ (يَا رَسُولَ اللَّهِ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ) قَالَ (نَعَمْ) قَالَ (بَخٍ بَخٍ) فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ (بَخٍ بَخٍ) قَالَ (لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا) قَالَ (فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا) فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ ثُمَّ قَالَ (لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ) قَالَ (**فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ التَّمْرِ ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ**)[6] .

---

[1]) رواه ابن خزيمة ج1 ص 161 رقم 312 وصححه الألباني : إرواء الغليل ج8 ص 27
2) رواه مسلم ج 1 ص 416 رقم 595
[3]) رواه مسلم ج5 ص 177 رقم 1674
[4]) رواه البخاري ج3 ص 1187 رقم 3079
[5]) رواه البخاري ج 3 ص 1187 رقم 3078
6) رواه مسلم ج9 ص 500 رقم 3520

قوله (..أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ..) (21) ذكر في سورة آل عمران أنه أعدها للمتقين ، وذكر هنا أنه أعدها للذين آمنوا بالله ورسله ، وهم المشار إليهم في قوله (وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)(الحديد/8) ، ذلك الإيمان المقترن بالبذل والعطاء في سبيل الله تعالى ، كما في (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)(الحديد/7) ، وهو ذات الإيمان الذي دعت إليه الرسل أجمعين ، فلا يتخلف البذل عن الإيمان أبدا .

وأعدها لهم يعني هداهم للطريق إليها وبينه وشرحه ، وأوضح أنها قريبة المنال وليست بعيدة المرمى ، يقول النبي ﷺ **(للجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله [1]والنار مثل ذلك)** [2] ، فالتسابق للآخرة هو سباق **قصير المسافة** ، ولو كان بالطويل لاحتاج كل متسابق أن يرشد طاقته حتى يكمل الطريق كله بما يتبقى لديه من طاقة حتى يصل لنهايته ، لكن الأمر على العكس من ذلك بالنسبة للآخرة ، فالمسافة إلى الجنة قصيرة وقصيرة جدا لدرجة أن النبي ﷺ شبه هذه المسافة بذات المسافة التي تكون بين المرء وشراك نعله ، فكما أن المسافة بين الرجل وأن يلبس نعله قريبة منه ، فكذلك المسافة إلى الجنة ، فليس عليه إلا أن يطأ قدمه فيها حتى يدخلها ، وكلما تأخر عن أن يتقدم بتلك الخطوة كلما سبقه غيره واستمتع بها ، وهو لا يزال قابعا في الدنيا.

والتعبير بشراك النعل له دلالتان :-

الأولى : فشراك النعل دليل على القرب ، وكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول (كل امرئ مصبح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله)[3]

الثانية : أن شراك النعل يحتاج إلى الإصلاح المستمر ،ويسهل إصلاحه أثناء المشي ، ولذلك روي عن عائشة أنها قالت : (سلوا الله التيسير في كل شيء حتى الشسع في النعل فإنه إن لم ييسره الله لم ييسر)[4]، فكذلك شأن الدنيا فهي بحاجة للإصلاح الدائم والسعي الدؤوب ، وكذلك الآخرة بحاجة لإصلاح ، لكن إصلاح الآخرة أيسر من إصلاح الدنيا ، فالدنيا مهما أصلحتها لن تستقيم لك على طريقة .

وهكذا يكون هم المتسابقين إلى الآخرة ، وهو ما يتطلب منهم لشحذ الهمم وبذل الطاقة والوسع في سبيل الله تعالى ، أي بذل كل غال ورخيص في سبيل الله تعالى لنيل الجائزة التي أعدها الله للمتقين ، الذين آمنوا بالله ورسله .

قوله (..ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (21) لما كان بذل المال أو النفس يتطلب شيء من الغنى وعلو اليد ، وقد سبق أغنياء الصحابة إلى هذا الفضل ، فبذلوا أكثر من إخوانهم الفقراء من المهاجرين ، الأمر الذي أثار غيرة الفقراء في التنافس على هذا الخير ، وأرادوا أن يتسابقوا مع إخوانهم الأغنياء إلى رضوان الله تعالى ، وقد قال رسول الله ﷺ **(لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ وَرَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا)**[5] قال العلماء (الحسد قسمان حقيقي ومجازي فالحقيقي تمنى زوال النعمة عن صاحبها وهذا حرام بإجماع الأمة مع النصوص الصحيحة وأما المجازي فهو الغبطة وهو أن يتمنى مثل النعمة التي على غيره من غير

---

1) (شراك نعله) السير الذي تدخل فيه الأصابع

[2]) رواه أحمد ج1 ص 442 رقم 4216 وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين ، ورواه البخاري في صحيحه ج5ص2380 رقم 6123

[3]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 185 رقم 525 وفي صحيحه ج6 ص 449 رقم 1756

[4]) رواه البيهقي في شعب الإيمان ج2 ص 42 رقم 1119 ضعفه الألباني

[5]) رواه البخاري ج5 ص 217 رقم 1320

زوالها عن صاحبها فإن كانت من أمور الدنيا كانت مباحة وان كانت طاعة فهي مستحبة والمراد بالحديث لا غبطة محبوبة إلا في هاتين الخصلتين)[1].

فلما سمع الأغنياء أن إخوانهم الفقراء كادوا يسبقونهم بما أوصاهم به رسول الله ﷺ من التزام التسبيح والتكبير والتحميد دبر كل صلاة ، فعلوا مثلما فعلوا والتزموا الذكر فضلا عن سبقهم بالبذل والعطاء ، هنا رجع الفقراء إلى رسول الله ﷺ مرة أخرى يشتكون أن إخوانهم الأغنياء قد سبقوهم درجة في الإيمان إذ التزموا الذكر فيما التزموه وتفوقوا عليهم ببذل الصدقات ، فنزل قول الله تعالى (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (الحديد/21)

ففي الحديث (**ذهب فقراء المهاجرين** إلى رسول الله ﷺ فقالوا **سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله** فقال رسول الله ﷺ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) [2]

ما يعني أن بذل ما آتانا الله من الفضل في سبيله سواء أكان هذا الفضل فضل مال أو وقت أو صحة أو علم ... الخ ، هو مناط المنافسة إلى الدار الآخرة ، فكل واحد منا ينعم بفضل الله تعالى ، لكن من منا يبذل هذا الفضل في سبيله سبحانه ؟ وذلك هو الإيمان الذي يجب أن يتسابق عليه المتسابقون ، فقد يبذل الغني ماله ، ويبذل الفقير دمه في سبيل الله ، ويبذل العالم وقته وجهده في الوعظ والإرشاد والنصيحة ، فسباق التنافس إلى الآخرة واسع ورحب وله مجالات شتى ، وكل ميسر لما خلق له .

[1]) شرح النووي على مسلم ج6 ص 97
[2]) رواه مسلم ج 1 ص 416 رقم 595

الدرس السادس

حكمة الله بإنزال المصيبة بمن بخل

قال تعالى (مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (الحديد/22-24)

ينزع الله تعالى بعض متاع الدنيا من الناس لكي يفطمهم عن التشبث بنهديها ، وتلك هي الحكمة من الابتلاء بالمصائب أحيانا ، كما قال تعالى :﴿ **وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ (الأعراف: 168)، فبالابتلاء ينكشف الوجه القبيح للدنيا التي طالما تزينت للناظرين وهي عجوز شمطاء ، قال ابن عباس : **(يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء** أنيابها بادية مشوه خلقها فتشرف على الخلائق فيقال : هل تعرفون بهذه فيقولون : نعوذ بالله من معرفة هذه فيقال : هذه الدنيا التي تناحرتم عليها بها تقاطعتم الأرحام وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ثم تقذف في جهنم فتنادي أي رب أين أتباعي وأشياعي فيقول الله تعالى : ألحقوا بها أتباعها و أشياعها)[1]

ومن حكم الابتلاء كذلك تكفير الذنوب والخطايا ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **(مَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ)**[2]، فالابتلاء فرصة لمراجعة النفس وحسابها على ما مضى ، قال الفضيل بن عياض: "الناس ما داموا في عافية مستورون، فإذا نزل بهم بلاء صاروا إلى حقائقهم؛ فصار المؤمن إلى إيمانه، وصار المنافق إلى نفاقه" [3].

قوله (مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) فالمصائب هي عوارض تعترض حياة الإنسان ، وهي من قبيل الابتلاء ، وهي في علم الله وتقديره الأزلي قبل أن يخلقها ، وهذه الحقيقة أراد الله أن يبينها لنا في هذا الموضع ، ذلك أنه لما كان متاع الدنيا قد غر كثيرا من الناس ، بالرغم من أن الله تعالى قد بين لنا حقيقتها وأوضح لنا أن الآخرة خير منها ، إلا أنه لا يزال بعضهم يتشبث بنهديها كطفل لم يفطم من الرضاع بعد ، فكيف يكون الخلاص منها ؟ أو تخليص هؤلاء المغرر بهم منها ؟ فمن المعلوم أن **الفطام يكون بالتدريج مع الطفل** ، بإنقاص حظه من اللبن مرة بعد مرة حتى يتخلص من تشبثه بثديي أمه مطلقا ، وكذلك وبذات الطريقة يبتلي الله تعالى عباده بالمصائب شيئا فشيئا حتى يفيقوا من حب الدنيا والتعلق بها ، فتكون المصائب سببا في تذكيرهم بالآخرة وإبطال بعض نهمهم من الدنيا ، ولذلك يقول النبي ﷺ **(يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ فِي بَلَائِهِ وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَنْهُ)**[4].

---

[1]) رواه البيهقي في شعب الإيمان ج7 ص 383 رقم 10671 ، قال الشيخ عبد الله آدم الألباني : استقل بهذا الحديث أبو بكر بن أبي الدنيا ، وهو يهتم بالرقائق ، في كتاب ذم الدنيا ، ص 50 رقم 68، في اسناده فضيل بن عياض ، وفيه فاصل زمني بينه وبين ابن عباس ، موقوف معضل ، ولكن معناه موافق للأخبار الصحيحة
https://www.youtube.com/watch?v=3-NkNOUBGGA

[2]) رواه الترمذي ج8 ص 418 رقم 2323 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج 1ص196 ، وصحيح الترمذي ج5ص399

3) المجالسة وجواهر العلم ، المؤلف : أبو بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري القاضي المالكي ج5 ص 109 رقم 1917

[4]) رواه أحمد ج3 ص 410 رقم 1400 وصححه الألباني في تعليقه على كتاب الإيمان لابن تيمية ج1 ص 62

فحتى لا تكون المصائب سببا في جزع الإنسان وكفره بالقضاء والقدر بين الله أن ما من مصيبة سواء عمت من في الأرض كالزلازل أو البراكين أو الطوفان أو الثلوج أو ارتفاع درجات الحرارة ....الخ ، أو خصت بعض الناس فنزلت بهم كالأمراض والأسقام أو موت الأقرباء و الأحباء أو خسارة في تجارة ... الخ ، فإن كل ذلك قد قدره الله تعالى في كتابه قبل أن يخلق هذه المصائب وحصول هذه الأحداث ، وذلك على الله يسير ، يقول النبي ﷺ (**قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة**) [1]، قال العلماء (المراد تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ أو غيره لا أصل التقدير فإن ذلك أزلي لا أول له) [2] .

قوله (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) إظهار الحكمة من تقدير الله تعالى المصائب على الناس حتى يتوسطوا في أمر الدنيا فلا هم يحزنون على ما فاتهم منها حزنا يضيع عليهم آخرتهم ، ولا هم يفرحون بما آتاهم منها فرحا ينشغلون به عن طاعته ورضوانه ، وإنما القصد فيها هم مقصود الشرع ، يقول النبي ﷺ (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له) [3] ، ولذلك قيل أن الزهد في هاتين الكلمتين ، فمن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه)[4] ، قال ابن القيم (فالزاهد لا يفرح من الدنيا بموجود ولا يأسف منها على مفقود) [5]، يقول صاحب الظلال (من يشعر بأن كل ما يصيبه هو من أمر الله لا يختال ولا يفخر بما يُعطاه ، ولا يبخل ولا يأمر بالبخل في عطاء) ، فالمصيبة تعيد التوازن النفسي للإنسان الناهم من الدنيا وتحد من شرهه .

قال ابن الجوزي (والمعنى أن المصائب مقدرة لا أنها وقعت على وجه الاتفاق كما يقول الطباعيون ولا أنها عبث بل هي صادرة عمن صدرت عنه محكمات الأمور ومتقنات الأعمال وإذا كانت صادرة عن تدبير حكيم لا يعبث إما لزجر عن فساد أو لتحصيل أجر أو لعقوبة على ذنب وقع التسلي بذلك) [6]

قال القشيري : (صفة المتحررين من رِقّ النفس ، وقيمة الرجال إنما تتبين بتغيُّرهم ، فمَن لم يتغير بما يَرِدُ عليه مما لا يريده من جفاءٍ أو مكروهٍ أو محبةٍ (فقد تحرر من رق نفسه) ، ومَن لم يتغير بالمضار ، ولا يَسُرُّه الوجد ، كما لا يُحْزِنْه العَدَم ، فهو سَيِّد وقته)[7] ، وَقَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ : إذَا بُلِيتَ فَثِقْ بِاَللَّهِ وَارْضَ بِهِ إنَّ الَّذِي يَكْشِفُ الْبَلْوَى هُوَ اللَّهُ إذَا قَضَى اللَّهُ فَاسْتَسْلِمْ لِقُدْرَتِهِ مَا لِامْرِئٍ حِيلَةٌ فِيمَا قَضَى اللَّهُ)[8].

قوله (وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ) فمن يبخل ويشح ويمتنع عن البذل والعطاء فهو مختال بما آتاه الله من فضل نائيا به عن مشاركة الناس معه ، فخور بعرض الدنيا الزائل ، (يحسب أن ما يؤتاه من مال وقوة وجاه هو من كسبه فيفخر ويختال به)[9]، وليس ذلك يرضي ربنا ، ولا يحبه ، يقول النبي ﷺ (ما من

---

[1]) رواه الترمذي ج4 ص 458 رقم 2156 وصححه الألباني
[2]) رواه مسلم بلفظ (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنه) ج4ص2044 رقم 2653 ، وانظر شرح النووي على الحديث .
[3]) رواه مسلم ج4 ص 2295 رقم 2999
4) وقفات مع الزهد ج1 ص3 ، :أمير بن محمد المدري إمام وخطيب باليمن نقلا عن علي رضي الله عنه
[5]) مدارج السالكين ج2 ص 10
[6]) الثبات عند الممات ج1 ص 29
[7])البحر المديد لابن عجيبة ج6 ص 255 وما بين القوسين تصرف مني بدلا من كلمة (فهو كامل)
[8]) أدب الدنيا والدين ج1ص 373
[9]) في ظلال القرآن

رجل يتعاظم في نفسه ويختال في مشيته إلا لقي الله وهو عليه غضبان) [1]، ويقول ﷺ (بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة) [2] ، فإذا ما أحب المرء الدنيا اختال بها وتفاخر فيها ، ويظل على ذلك حتى يفجر أمامه .

قوله (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ) مؤدى الفخر والخيلاء أن يبخل المرء بما آتاه الله من فضل ، ويتكاسل أن يبذل الفضل في سبيله ، بل ويأمر غيره بالبخل ، فيصير من مانعي الخير ، قال رسول الله ﷺ (إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم سفكوا دماءهم وقطعوا أرحامهم والظلم ظلمات يوم القيامة) [3]، وفي رواية (إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالشُّحِّ أَمَرَهُمْ بِالْبُخْلِ فَبَخِلُوا وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا)[4]، قال العلماء (وهذا يوضح أن البخل –وهو عدم البذل– يكون نتيجة لما قام في القلب والنفس)[5].

والبخلاء لا يقتصر أمرهم على أنهم يمنعون الماعون ، بل إنهم ليأمرون غيرهم بالبخل حتى لا يكونوا وحدهم البخلاء ، ولذلك يريدون تحسين صورتهم أمام الناس بمنع الكرم منهم لغيرهم ، وهكذا يكون الصد في سبيل الله من أصحاب هذه الصفة المذمومة ، ولا يقتصر البخل عند منع الصدقات وإنفاق المال في سبيل الله وحسب ، بل يستطيل لأمر الناس بكتمان كلمة الحق ، وهكذا يحاول البخلاء السيطرة على حرية الرأي والتعبير ، ووأد الدعوة الإسلامية ومنع انتشارها ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلَهُ: " وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ " يَقُولُ: وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْكِتْمَانِ"[6] ، قال قتادة (كَتَمُوا الإِسْلامَ وَمُحَمَّداً ﷺ وَهُمْ يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ)[7] ، والمنافقون تماما مثل أهل الكتاب يبخلون بإيصال المساعدات لأهلها ، كما في قوله تعالى (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ) (المنافقون/7) .

قوله (وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) فالله غني عن مال البخيل ، أي أن الفقير ليس بحاجة إلى مال البخيل ، ولا ينتظر عطاءه ، لأن صفة العطاء ماضية إلى يوم القيامة وكذلك البذل والتضحية ، فالله قادر على أن يخلق أناس بهذه الصفات ، وإنما المشاركة في الخير شرف ، لكن من يبخل ويتولى عن أن يشارك إخوانه المتصدقين تلك الصورة المشرقة والنور المتلألئ ، فالله غني بنفسه عنه ، وحميد لمن سبق لبذل الخير والعطاء ، ويكفيه حمد الله له وشكر الله صنيعه .

---

[1]) رواه الحاكم في المستدرك ج1ص128 رقم 201 وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وصححه الألباني في الجامع الصغير وزياداته ج1 ص 1065 رقم 10648 وانظر السلسلة الصحيحة ج5 ص 342 رقم 2272

[2]) رواه البخاري ج3 ص 1285 رقم 3297

[3]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 166 رقم 470 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج1 ص191 رقم 470

[4]) رواه أبو داود ج5 ص 18 رقم 1447 وصححه الألباني : صحيح أبي داود ج5 ص 380

[5]) شرح سنن أبي داود لعبد المحسن العباد ج9 ص 179

[6]) تفسير ابن أبي حاتم ج4 ص 159

[7]) تفسير ابن أبي حاتم ج4 ص 160

المحور الثاني
الجهاد رهبانية هذه الأمة

انتقلت السورة من التعريض عن الجهاد في سبيل الله تعالى بالمال والنفس إلى التصريح به ، موضحة مفهوم نصرة الله ورسله ، وأن مبدأ النصرة هو دليل الإيمان ، وبه يتحقق ميزان العدل في الأرض ، وأعلت من شأن الجهاد في سبيل الله بأنه رهبانية هذه الأمة .

وفيه درسان :-

- إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن
- الجهاد رهبانية هذه الأمة

الدرس الأول
إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن

قال تعالى (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ **الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ** لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ **وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ** فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) (الحديد 25)

قال ابن كثير في شرح عبارة (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) أي: (ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام، ما لا يمتنع كثيرٌ من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد، والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع) [1].

فالتلازم بين المنهج وتطبيقه حتمي ، كالتلازم بين المال والسلطان ، ولذلك قالوا (الدين أس والسلطان حارس ، ومن لا أس له فمهدوم ومن لا حارس له فضائع) ، والأصل أن الناس أحرار في تصرفاتهم ، ولكن حريتهم لابد وأن تقف عندما تمس حرية الآخرين ، فلا يتغول بحريته على حريتهم ، ومن هنا وجد السلطان لينظم مباشرة الحريات الإنسانية دون أن تتعارض وفق منهج الله تعالى الذي وضع للحرية أساسها الشرعي وضوابط ممارستها ، بغير ذلك لا تستقيم الدنيا على ميزان .

قوله (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ..)(25) أكد الله على أنه أرسل الرسل بالآيات البينات الواضحات ومعهم أمرين اثنين لا ينفك أحدهما عن الآخر ، الأمر الأول (كتاب الله) وهو المنهج الذي يُدَرِّسه الرسل لقومهم ، فهو الذي يرسم لهم طريق النور والهدى لتسير فيه ، والثاني (الميزان) ويقصد به التطبيق العملي لهذا المنهج ، أي ليتحقق العدل والقسط بين الناس ، وهو الشريعة الربانية

[1]) تفسير ابن كثير ج5 ص 111

قال ابن تيمية (والميزان قال كثير من المفسرين هو "العدل" وقال بعضهم هو ما به توزن الأمور ، وهو ما به يعرف العدل) [1]، فالشريعة نزلت لتحقيق العدل بين الناس ، يقول سبحانه (وَالسَّمَاء رَفَعَهَا **وَوَضَعَ الْمِيزَانَ** ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي **الْمِيزَانِ** ، وَأَقِيمُوا **الْوَزْنَ** بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا **الْمِيزَانَ**) (الرحمن/7-9) ، وهو ما يستلزم أن يقوم السلطان —ولي الأمر– على تطبيق هذا المنهج بميزان الشرع ، لاسيما عند الاختلاف ، أخذا بالقاعدة (**حكم الحاكم في المسائل المختلف فيها يرفع الخلاف**) وذلك ما لم ينتقض حكمه بحكم آخر [2] ، على أن يراعي في حكمه تحقيق المصلحة العامة ، ولذلك قالوا (تصرف الإمام في الرعية منوط بالمصلحة) .

قال سيد قطب (هذا الميزان الذي أنزله الله في الرسالة هو الضمان الوحيد للبشرية من العواصف الزلازل والاضطرابات والخلخلة التي تحيق بها في معترك الأهواء ومضطرب العواطف ، ومصطخب المنافسة وحب الذات . فلا بد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر ، فيجدون عنده الحق والعدل والنصفة بلا محاباة . { ليقوم الناس بالقسط } . . فبغير هذا الميزان الإلهي الثابت في منهج الله وشريعته ، لا يهتدي الناس إلى العدل ، وإن اهتدوا إليه لم يثبت في أيديهم ميزانه ، وهي تضطرب في مهب الجهالات والأهواء!)[3]

وهنا دخل الحديث عن أمور الحكم والسلطة والسلطنة والسياسة في أحكام الشريعة الإسلامية فلا تنفك عنها ، خلافا لمن أخطأ فظن أن أمور السياسة لا تختلط بالدين ، بل إن دين الله ينظم العلائق بين الناس جميعا بما فيهم حكامهم ورعيتهم ، يقول الرازي (فبيان الشرائع بالكتاب، وتقويم أبواب العدل بالميزان، وتنفيذ هذه المعاني بالسيف، فإن مصالح الدين من غير هيبة السلطان لا يمكن رعايتها، **فالملك والدين توأمان**، فالدين بلا ملك ضائع، والملك من غير دين باطل، و"السلطان ظل الله في الأرض ، يأوي إليه الضعيف، وبه ينتصر المظلوم" ، فظواهر الكتاب للعوام، ووزن معارفه لأهل الحقائق بالميزان، ومن خرج عن الطائفتين فله الحديد وهو السيف ، يقول النبي ﷺ (**جعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري**) [4] .

قوله (..وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ..)(25) كنى المولى سبحانه بالحديد عن الجهاد في سبيل الله تعالى وتطبيق العقوبات الإسلامية على المتجاوزين والمعتدين ، كما يجوز أن يتعدى التعبير عنه كناية لقوة العمران .

فكون الحديد كناية عن حماية الحق بالجهاد وإنزال العقوبات علي المخالفين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمنع حصول ذلك مستقبلا ، فقد قال ابن كثير (أي **وجعلنا الحديد رادعا لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه** ، ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية وكلها جدال مع المشركين وبيان وإيضاح للتوحيد وبينات ودلالات، **فلما قامت الحجة** على من خالف شرع **الله أمر بالهجرة** — لما لاقاه من إيذاء واضطهاد ديني وسياسي – **وأمرهم بالقتال** بالسيوف وضرب الرقاب والهام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده)[5] — أي وحارب الإسلام والمسلمين —

---

[1]) الرد علي المنطقيين ج 1 ص 333
[2]) المنثور في القواعد لمؤلفه محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي ج2 ص 69 – وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت
[3]) في ظلال القرآن ج7 ص 139
[4]) رواه البخاري ج
[5]) تفسير ابن كثير ج8 ص 27

وأما **كون الحديد سببا لقوة العمران** ، فقد قال الإمام البقاعي (ولما كان الإعراض بعد الإبلاغ في الإيضاح موجباً للرد عن الفساد بأنواع الجهاد، قال مهدداً وممتناً ترغيباً وترهيباً معبراً عن الخلق بالإنزال تشريفاً وتعظيماً: (وأنزلنا) أي خلقنا خلقاً عظيماً بما لنا من القدرة (الحديد) أي المعروف على وجه من القوة والصلابة واللين والحدة لقبول التأثير يعد به كالبائن لما في الأرض، فلذلك سمي إيجاده إنزالاً ..، ولما وقع التشوف إلى سبب إنزاله، قال: (فيه بأس) أي قوة وشدة وعذاب (شديد) لما فيه من الصلابة الملائمة للمضاء والحدة (ومنافع للناس) بما يعمل منه من مرافقهم ومعاونهم لتقوم أحوالهم بذلك، قال البيضاوي: ما من صنعة إلا والحديد آلتها) [1].

وعليه تتضح وظيفة السلطان وأهمية استخدامه الحديد – أي القوة والسلطة – في إدارة حكمه لأمرين لا ينفك أحدهما عن الآخر :-

الأول حراسة الناس من اعتداء الظالمين على حقوقهم التي أقرتها الشريعة الإسلامية ، أي أقرها الله لهم في كتابه وبينها لنا رسله الكرام

والثاني تحقيق منافع الناس ومصالحهم العامة كشق الترع وإقامة الجسور وتمهيد الطرق وإنشاء المستشفيات والمدارس والخدمات العامة اللازمة لهم .. الخ وبالجملة كل ما يدخل الحديد في صنعته ويحتاج لقوة يستعان فيها بالسلطان أو لقوة تضاهي قوة السلطان ، واليوم يستخدم الحديد في مجال صناعة السيارات والطائرات والأجهزة الكهربائية والالكترونية والأسلحة حيث تعتمد هياكل تلك الآلات على الحديد .

وقد ضرب ذو القرنين أروع مثال في استخدام الحديد في مجال الحرب والدفاع حين حبس جوج ومأجوج في سد منيع ، كما في قوله (**فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ، آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ** حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ، فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) (الكهف/95-97)

وكذلك نبي الله داود كان يصنع من الحديد دروعا للمجاهدين تقيهم من بأس الأعداء يقول سبحانه (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ، أَنِ **اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ** وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (سبأ/10-11) ، وأما استخدام الحديد فيما ينفع الناس غير أمور الحرب و الدفاع عن البلاد فله أمثلة كثيرة ، كصناعة نبي الله تعالى سليمان **المحاريب والجفان والقدور** ، حيث تعتمد في هياكلها كذلك على الحديد ، لقوله تعالى (وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ) ، فالقطر نوع من الحديد اسمه النحاس عندما يذوب ويسيل يسهل تشكيله وإعادة تصنيعه على النحو المراد منه ، قال قتادة : فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان عليه السلام [2] .

بيد أن العرب اليوم تخلفوا عن الصناعة ولم ينظروا إليها على أنها مطلب شرعي ، وقد تناسى الناس اليوم أن الصحابة رضوان الله عليهم لما فتحوا البلاد الإسلامية لم يتركوا تعمير الدنيا بحجة تعليم الناس الدين وإنما شقوا الترع وأقاموا المساجد ودور التعليم والفساطيط ...الخ ، ولعل ما فعله عمرو بن العاص من تعمير لمصر خير شاهد على ذلك ، يقول ابن خلدون (**العرب أبعد الناس عن الصنائع** السبب في ذلك أنهم أعرق في البدو و أبعد عن العمران الحضري

[1]) نظم الدرر في تناسب الآيات و السور
[2]) تفسير بن كثير سورة سبأ الآية 12

وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها والعجم من أهل المشرق وأمم النصرانية عدوة البحر الرومي أقوم الناس عليها لأنهم أعرق في العمران الحضري وأبعد عن البدو وعمرانه .. ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه في الإسلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب إليه من قطر آخر وانظر بلاد العجم من الصين والهند وأرض الترك وأمم النصرانية كيف استكثرت فيهم الصنائع واستجلبها الأمم من عندهم ..) [1] ، وقال (المباني والمصانع في الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها وإلى من كان قبلها من الدول) ، ولذلك يقول بن خلدون (**الصنائع لا بد لها من العلم**) [2]

قال ابن عجيبة والنسفي : **والمناسبة بين هذه الأشياء الثلاثة (أرسال الرسل وإنزال الكتاب والحديد** : أنّ **الكتاب** قانون الشريعة ، ودستور الأحكام الدينية ، يُبين سبيل المراشد والعهود ، ويتضمن جوامع الأحكام والحدود ، ويأمر بالعدل والإحسان ، وينهى عن البغي والطغيان ، والاجتناب عن الظلم ، ومن المعلوم : أنَّ الكتاب الجامع للأوامر الإلهية.

وأما (**الميزان**)إنما يقع بآلة بها يقع التعامل ، ويحصل بها التساوي والتعادل .. ، والآلة الموضوعة للتعامل بالتسوية

وأما (**الحديد**) ، إنما يُحافظ العوامّ على اتباع–الكتاب– **بالسيف** ، الذي هو حجة الله على مَن جحد وعَانَد ، ونزع من صفقة الجماعة اليد ، فالحديد هو الذي وُصِف بالبأس الشديد)[3].

قال ابن تيمية (فَمَنْ خَرَجَ عَنْ الْكِتَابِ وَالْمِيزَانِ قُوتِلَ بِالْحَدِيدِ ، فَالْكِتَابُ وَالْعَدْلُ مُتَلَازِمَانِ وَالْكِتَابُ هُوَ الْمُبَيِّنُ لِلشَّرْعِ ؛ فَالشَّرْعُ هُوَ الْعَدْلُ وَالْعَدْلُ هُوَ الشَّرْعُ وَمَنْ حَكَمَ بِالْعَدْلِ فَقَدْ حَكَمَ بِالشَّرْعِ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ يَنْسُبُونَ مَا يَقُولُونَهُ إلَى الشَّرْعِ وَلَيْسَ مِنْ الشَّرْعِ ؛ بَلْ يَقُولُونَ ذَلِكَ إمَّا جَهْلًا وَإِمَّا غَلَطًا وَإِمَّا عَمْدًا وَافْتِرَاءً وَهَذَا هُوَ الشَّرْعُ الْمُبَدَّلُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَصْحَابُهُ الْعُقُوبَةَ ؛ لَيْسَ هُوَ الشَّرْعَ الْمُنَزَّلَ الَّذِي جَاءَ بِهِ جِبْرِيلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إلَى خَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ فَإِنَّ هَذَا الشَّرْعَ الْمُنَزَّلَ كُلُّهُ عَدْلٌ لَيْسَ فِيهِ ظُلْمٌ وَلَا جَهْلٌ)[4].

قوله (..وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ..)(25) المقصود بعلم الله هنا –كما ذكر المفسرون – علم الشهادة [5]، أن يرى ما يعلمه في علم الغيب عنده وقد أضحى واقعا مشاهدا في حياة المكلفين ، فهو سبحانه يعلم الغيب ، أي يعلم ما سوف تصير إليه الأمور ، إنما يريد الله من أهل الإيمان أن يعلم منهم مقدار البذل والعطاء الذي يقدمونه لنصرة الحق في عالم الشهادة ،وهو عالم بذلك في عالم الغيب ، قال مفتى الديار المصرية أى : (وأنزل – سبحانه – الحديد لكى يستعملوه فى الوجوه التى شرعها الله وليظهر – سبحانه – أثر علمه حتى يشاهد الناس ، **من الذى سيتبع الحق منهم ، فينصر دين الله – تعالى – وينصر رسله** ، ويستعمل نعمه فيما خلقت له حالة كونه لا يرى الله – تعالى – بعينيه ، وإنما يتبع أمره –بالغيب– ، ويؤمن بوحدانيته ووجوده وعلمه وقدرته)[6].

---

[1]) تاريخ بن خلدون ج 1 ص 506
[2]) تاريخ بن خلدون ج 1 ص 501
3) البحر المديد ج6 ص 257 مع بعض التصرف
[4]) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ج1 ص 264
[5]) الإمام البقاعي نظم الدرر في تناسب الآيات والسور
[6]) الوسيط لسيد طنطاوي ص 4103

وفي قوله (ليعلم..) قال البغوي أي (ليرى..) [1]وقال ابن كثير في تفسيره: أي: (من نيته في حمل السلاح نصرة الله ورسله)[2]، **فعلمه سبحانه تصديق لفعل المكلفين** ، بمعنى **قبول عمله** الذي عمله لله تعالى ، ولذلك قال النبي ﷺ (مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ) ، فهذا الذي سأل الله الشهادة بصدق أعد لها ، كما في قوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم)[3] ، لعلمه أن الله تعالى يوفق من يسأله الشهادة بصدق نيته ، ويخزي من لا يصطحب هذه النية في قلبه ، كما في قوله (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين) .

وقد أوقع سبحانه الضمير في قوله (من ينصره) عليه ، تعظيما **لأهل الإيمان عند حاجتهم هم للنصرة** ، فيستنصرون بالله وينصر بعضهم بعضا ابتغاء مرضاته ، كما في قوله ﷺ (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي قَالَ يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي)[4] .

وكذلك المسلم إذا كان بحاجة إلى نصرة أخيه المسلم ، فلابد وأن ينصره إذا استنصر به ، ولا يخذله ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **(مَا مِنْ امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ ، وَمَا مِنْ امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ)**[5] ، قال ابن تيمية (ولهذا أمر النبي أمته بتولية ولاة أمور عليهم ، وأمر ولاة الأمور أن يردوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل ، وأمرهم بطاعة ولاة الامور فى طاعة الله)[6] ، أي لابد وأن يعيش المسلمون في ولاية تخضع لحكم الله ورسوله وولي أمرها حتى تطلع للقيام بفروض الكفاية كالجهاد في سبيل الله ، فإقامة هذه الفروض منوط بالإمام ، وطاعته واجبة لأجل إقامتها ، وفي عدم طاعته تعطيل لها .

ونصرة الله ورسله بالغيب هي أبلغ دليل على صدق الإيمان بالله تعالى ، (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال (ينصرونه ولا يبصرونه)[7] ، **فالإيمان بالغيب هو الذي حمل عمرو بن الجموح لأن يجاهد في سبيل الله بعرجته** ، روي أن عمرو بن الجموح كان أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة بنون شباب يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا فلما أراد رسول الله ﷺ يتوجه إلى أحد قال له بنوه (إن الله عز وجل قد جعل لك رخصة فلو قعدت فنحن نكفيك فقد وضع الله عنك الجهاد) ، فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ فقال (يا رسول الله إن بني هؤلاء يمنعون أن أخرج معك والله إني لأرجو أن استشهد **فأطأ بعرجتي هذه في الجنة)** ، فقال له رسول الله ﷺ (أما

---

[1]) تفسير البغوي ج8 ص 41
[2]) تفسير ابن كثير ج8 ص 28
3) رواه مسلم ج10 ص 17 رقم 3532
4) رواه مسلم ج12 ص 440 رقم 4661
5) رواه أبو داود ج13 ص 28 رقم 4240 وصححه الألباني: صحيح كنوز السنة النبوية ج1 ص 169
6) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه ج28 ص 64
7) تفسير السراج المنير ج1 ص 4526 الكشاف ج7ص3 ، ارازي ج15 ص 246 ، الجلالين ج1 ص 722

أنت فقد وضع الله عنك الجهاد) ، وقال لبنيه (وما عليكم أن تدعوه لعل الله يرزقه الشهادة) ، فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم أحد شهيدا) [1]

قوله (..إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)(25) قال البقاعي "**قوي**" أي فهو قادر على إهلاك جميع أعدائه وتأييد من ينصره من أولياءه ،"**عزيز**" فهو غير مفتقر إلى نصر أحد ، وإنما دعا عباده إلى نصر دينه ليقيم الحجة عليهم ، فيرحم من أراد بامتثال المأمور ، ويعذب من يشاء بارتكاب المنهي ، ببنائه هذه الدار على حكمة ربط المسببات بالأسباب)[2] .

1) رواه البيهقي في سننه الكبرى ج9 ص 24 رقم 17599 وصححه الألباني : فقه السيرة ج1 ص 260
2) نظم الدرر ج8 ص 380

الدرس الثاني

الجهاد رهبانية هذه الأمة

قال تعالى (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (26) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) (27)

قوله (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ..) (26) ومن فضله سبحانه على أنبيائه أن جعل من ذريتهم أنبياء ، يقول ابن كثير (أخبر تعالى أنه منذ بعث نوحا عليه السلام لم يرسل بعده رسولا ولا نبيا إلا من ذريته وكذلك إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن لم ينزل من السماء كتابا ولا أرسل رسولا ولا أوحى إلى بشر من بعده إلا وهو من سلالته) [1] ، والله تعالى لم يرسل رسولا إلا ومعه المنهج الإلهي لقومه الذي يعملون به ، فأنزل الله التوراة على موسى وأنزل الزبور على داود والإنجيل على عيسى ، وهكذا ظل هذا الدين هو يتوارث بين الأنبياء فيما بينهم ,

وفي ذلك دلالة عظيمة ، تشير إلى أن الدنيا التي يُزَهِّد الله تعالى عباده فيها لم تكن ببعيدة المنال عن عباده المؤمنين ، ذلك أن كل ما يتمناه المؤمن من الدنيا أن يرى ذريته صالحين ، فإذا منَّ الله على أنبيائه بذرية جعل فيها النبوة ، فقد جمع لهم خيري بين الدنيا والآخرة في آن واحد ، تأمل قوله سبحانه (الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ) (يونس/63-64) ، وقال سبحانه (وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ) (الأعراف 156) **، فحسنة الدنيا الذرية الصالحة** ، يقول النبي ﷺ **(إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له)** [2].

قوله (..فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ..)(25) والشاهد على ذلك نبي الله يعقوب كان من ذريته ثلاثة عشر ولدا ، فيهم نبي الله يوسف وبنيامين ، وأحد عشر ولدا تآمروا على قتل يوسف ، وألقوه في البئر ، ولكنهم جميعا – ورغم فسق أكثرهم – مسلمين ، ولكنهم بعد فسقهم ومحاولتهم قتله تابوا وحسن إسلامهم ، قال تعالى (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) (البقرة/132) ، وسموا بالأسباط كما في قوله تعالى (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا) (النساء 163) ، فكان يوحى إليهم ، أي صاروا بعد توبتهم أنبياء .

---

1) تفسير ابن كثير ج8 ص 28

2) رواه مسلم ج 3 ص 1255 رقم 1631

قوله (..ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ..) شاءت إرادة الله تعالى أن يرسل إلينا الرسل تترا كل رسول يصدق ما قبله ويسير على نهجه في أصول الاعتقاد وعموم الأخلاق ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ تَسُوسُهُمْ أَنْبِيَاؤُهُمْ كُلَّمَا ذَهَبَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ** ، وَأَنَّهُ **لَيْسَ كَائِنٌ بَعْدِي نَبِيٌّ فِيكُمْ** قَالُوا فَمَا يَكُونُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ تَكُونُ **خُلَفَاءُ** فَيَكْثُرُوا قَالُوا فَكَيْفَ نَصْنَعُ قَالَ أَوْفُوا بِبَيْعَةِ الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ ، أَدُّوا الَّذِي عَلَيْكُمْ فَسَيَسْأَلُهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ الَّذِي عَلَيْهِمْ)[1] ، فكان آخر من اقتفى أثر الأنبياء قبل النبي محمد ﷺ هو نبي الله عيسى عليه السلام الذي خلقه الله تعالى بلا أب وأنزل الله عليه الإنجيل .

قوله (وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ) (الحديد/27) ضرب الله المثال بعيسى بن مريم والحواريين الذين ناصروه في وقت لم ينصره غيرهم أحد ، ووصفهم بأن قلوبهم كانت لينة تتمتع بالرأفة والرحمة ، وهم الذين دعاهم نبيهم لنصرته فأجابوه ، قال سبحانه (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ **قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ** آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ، رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) (آل عمران/52-53) ، وبذلك يشير القرآن إلى أن **القلة هي التي نصرت الله ورسوله ، وأن الكثرة هي التي أبت** .

بين أن الاستغراق في الأمور بلا حد يؤدي أحيانا إلى الضد ، حتى أمور العبادات لا يجوز في الإفراط ولا التفريط ، ولذلك قال النبي ﷺ (القصد القصد تبلغوا) ، فالاقتصاد في الطاعات مطلوب ، لأن الاستغراق في طاعة لابد وأن يكون على حساب طاعة أخرى ، فالاستغراق في الاعتكاف في المساجد والمحراب يؤدي إلى التفريط في أعمال الدنيا وإقامة العمران وإصلاح الأراضي والزراعة وأعمال الطب ..... ولكن الشيطان يدخل لأهل العبادة حب الغرور والتباهي والرياء ، فيفسد عليهم عبادتهم ، من هنا ابتدع النصارى رهبانية بخلاف ما كتبها الله عليهم ، فحبسوا أنفسهم في الأديرة والصوامع ، وصاموا نصف العام وهكذا اخترعوا عبادات لم ينزل الله بها عليهم سلطان

من هنا كان لابد وأن تبين الآيات ماهية النصرة والعبادة ومفهومها ومضمون كل منهما حتى لا يتوهم متوهم أنه ينصر الله ورسوله بعمل ،يظنه عبادة ، وهو ليس كذلك ، بل هو بدعة منهي عنها ، ذلك أن الله قد بين الطريق الصحيح لنصرته ، وأن أي محاولة لنصرة هذا الدين بغير الطريق الذي حده الشرع تؤدي إلى ضد ذلك ، فيخرج متبعها عن الصراط المستقيم

ولذلك كان من المناسب ذكر أن بعض التابعين لنبي الله عيسى قد انقطعوا للعبادة في المحراب ، دون أن يراعوا في ذلك حظ أنفسهم من الدنيا ، فلم يتزوجوا النساء ولم يفتروا عن الصلاة وبعضهم لم يأكل اللحم ، وتلك رهبانية مبتدعة وليست من الشريعة ، وليست على ميزان العدل ، ولذلك ذمها الشرع

[1]) رواه ابن ماجة ج8 ص 408 رقم 2862 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 144 رقم 2862

فالله تعالى لا يريد أن ينعزل المسلم عن الدنيا بالكلية ، وأن نعيش في صوامع ولا نخرج منها أبدا ، فعن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ « لا تشددوا على أنفسكم فإنما هلك من قبلكم بتشديدهم على أنفسهم وستجدون بقاياهم في الصوامع والديارات) »[1]

ولقد شدد بعض الصحابة على أنفسهم ورغبوا في أن يترهبوا فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك ، فعن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ – رضى الله عنه – يَقُولُ جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ . قَالَ أَحَدُهُمْ أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا . وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ . وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا . فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ « أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي »[2]

وجاء في رواية مسلم أن (أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لاَ أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ لاَ آكُلُ اللَّحْمَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ لاَ أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ. فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ. فَقَالَ « مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي »[3]

من هنا نفهم أنه لا رهبانية في الإسلام إلا فيما شرعه الله تعالى ، وأن العبادات ليست بالأهواء وإنما هي أمور توقيفية ، يعني ينبغي علي العبد أن يتوقف عند ما شرعه الله ، ولا يتجاوز ذلك ، فيتعلم أولا ما أنزله الله من شرع ،ويتبعه دون أن يبتدع هو عبادة لم يشرعها الله تعالى .

ورهبانية الإسلام التي شرعها الله للمسلمين هي الجهاد في سبيل الله ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أن يوصيني فقال «أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الإِسْلاَمِ ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللَّهِ وَتِلاَوَةِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ رَوْحُكَ فِي السَّمَاءِ وَذِكْرٌ لَكَ فِي الأَرْضِ»[4] ، من ذلك يبدو لنا أن الإسلام قد رسم لنا طريقا واحدا للترهبن ألا وهو الجهاد في سبيل الله تعالى

وسبب تسمية الجهاد "رهبانية" التشابه الشديد بينهما ، قال رسول الله ﷺ (مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ وَتَوَكَّلَ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ بِأَنْ يَتَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يَرْجِعَهُ سَالِمًا مَعَ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ) [5]، ذلك أن الرهابية هي الانقطاع للعبادة ، والعبادة بمفهوم الإسلام لا تقتصر علي الصوم أو الصلاة فحسب ، بل إن ديننا شامل لكافة جوانب الحياة ، فلا يجوز لمسلم أن ينقطع لعبادة ما تاركا سائر العبادات أو العادات التي تصير عبادات بالنية الصالحة لله ، وإن كان بد من الانقطاع لعبادة ما بحيث يظل مداوما عليها مع سائر العبادات الأخرى ودون تفريط في غيرها ، فهي عبادة واحدة يجوز له أن يفعل فيها ذلك ، وهي عبادة الجهاد في سبيل

[1]) رواه الطبراني ج 3 ص 258 رقم 3078 وصححه الألباني انظر السلسلة الصحيحة ج 8 ص 131 رقم 3124
[2]) رواه البخاري في صحيحه ج ص رقم
[3]) رواه مسلم
[4]) رواه أحمد ج3 ص 82 رقم 11791 بإسناد ضعيف ، ورواه الطبراني في المعجم الصغير ج2 ص 156 رقم 949 ورواه الشهاب في مسنده ج 1 ص 431 رقم 740 ، وحسنه الألباني انظر الجامع الصغير ج1 ص 431 رقم 4308 ، وصححه لغيره من رواية الطبراني في صحيح الترغيب و الترهيب ج3ص57 رقم 2869 ، وصححه بمجموع طرقه انظر السلسلة الصحيحة ج2 ص 94 رقم 555
[5]) رواه البخاري ج9 ص 350 رقم 2579

الله ، فإن رهبانية هذه الأمة ، حيث ينقطع المجاهد عن الدنيا للانشغال بالجهاد في سبيل الله سواء الجهاد في ساحة القتال أو الرباط في سبيل الله استعدادا لذلك اليوم ، والتزام هذه السنة ، هو الصراط المستقيم .

قوله (فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) أي لم يلتزموا رهبانية الإسلام وهي الجهاد في سبيله ، يقول القرطبي (أي فما قاموا بها حق القيام ... وإنما **تسببوا بالترهب إلى طلب الرياسة على الناس وأكل أموالهم** كما قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله) [التوبة / 34] ، فالله نسأل أن يعودوا إلي سنة رسول الله ﷺ التي أوضحت لنا مفهوم العبادة بمعناها الشامل لكافة جوانب الحياة كما بينا .

قوله (فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) أي أن الذين التزموا الجهاد في سبيل الله هم **الذين رابطوا حتى إذا استنفرهم الإمام لم يتكاسلوا أو يبخلوا** ، فنالوا الأجر على ذلك ، لكن كثير من أهل البدع والأهواء عندما استنفروا للجهاد فسقوا بحجج كثيرة عن إجابة النداء.

فالذي لا يفهم ذلك ويستغرق في رهبانية ما شرعها الله تعالى ، ولو كان ذلك بصورة جزئية كأن ينقطع للعلم دون الدعوة أو الدعوة دون العلم أو العبادة بالإكثار من الشعائر دون العمل لطلب الكسب أو العلم دون العبادة بالشعائر ، فلا شك أنه ليس علي الصراط المستقيم ، أما أن يُستنفر المسلمون جميعا لأمر الجهاد في سبيل الله فهذا الذي يجب أن يشغلهم جميعا ويهتموا به ، ولا يكونوا كالذين من قبلهم قست قلوبهم لما أمرهم الله تعالى بالجهاد في سبيل وبذل أنفسهم لله فبخلوا بها ، وظنوا أنهم لو ظلوا في صوامعهم يصلون ويصومون سوف يكفيهم ذلك ، ولكن الله تعالى لا يتقبل من الأعمال إلا ما كان وفق شرعه ، والله سبحانه لم يشرع لهم التكاسل عن الجهاد في سبيل الله تعالى بحجة الانقطاع للعبادة والصلاة والذكر ، نعم قد يستثنى الإمام بعض الأمة لتستنفر في أمر أخر كطلب العلم أما أن يستنفر نفسه هو للعلم دون أن تكون لديه نية الجهاد في سبيل الله ، فلا شك أنه مقلد لهؤلاء الرهبان الذي خرجوا عن منهج الإسلام الذي يرضاه الله تعالى.

خاتمة سورة الحديد

الإيمان الحق هو إيمان النصرة لله ورسوله ، وبه ينال المؤمن فضل الله

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (الحديد/28-29)

لم يكن عدد من أمن من "أهل الكتاب" (اليهود والنصارى) بالنبي محمد ﷺ في بداية الدعوة الإسلامية وفي المدينة المنورة كثير ، بل كانوا عددا قليلا ، حتى أن النبي ﷺ قال (**لَوْ آمَنَ بِي عَشَرَةٌ مِنْ الْيَهُودِ لآمَنَ بِي الْيَهُودُ**)[1] ، وقد عُرفوا في كتب التاريخ والسيرة بـ" **مُسلِمة أهل الكتاب** "من أبرزهم : –

أولا : من أحبار اليهود : –

- **عبد الله بن سلام** :كان من كبار أحبار اليهود في المدينة (بني قينقاع) ومن نسلها. أسلم فور قدوم النبي ﷺ للمدينة، وشهد له النبي بالجنة.
- **مخيريق اليهودي** :كان من علماء يهود بني النضير وأثريائهم. أسلم وشارك في معركة "أُحد"، وقُتل فيها، وأوصى بجميع أمواله للنبي ﷺ
- **أسد بن سعية وثعلبة بن سعية** :من يهود بني قريظة، أسلما قبل حصار بني قريظة وحقنا دماءهما ومالهما.
- **يَمين بن عمير وأبو سعيد بن وهب** :أسلما يوم فتح بني قريظة .

ثانيا : من علماء النصارى والرهبان : –

- **سلمان الفارسي** :باحث الحقيقة الذي تنقل بين الشام والموصل وعمورية طلباً للدين الحق، وكان نصرانياً قبل أن يهاجر إلى المدينة ويُسلِم .
- **تميم الداري** :كان راهباً نصرانياً من الشام، قدم على النبي ﷺ في السنة التاسعة للهجرة وأسلم.
- **بحيرا الراهب** :التقى بالنبي ﷺ في طفولته أثناء رحلته إلى الشام مع عمه أبي طالب، وتنبأ بنبوته، وقد آمن به بعض المؤرخين بناءً على روايات تشير إلى إسلامه لاحقاً.
- **النجاشي (أصحمة)** : ملك الحبشة الذي آمن بنبوة محمد ﷺ واستقبل المهاجرين المسلمين، وصلى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب بعد وفاته في السنة التاسعة للهجرة.
- **وفد نجران** :مجموعة من نصارى نجران الذين قدموا المدينة وناظروا النبي ﷺ ، ومنهم "السيد" و"العاقب" والذين أسلم بعضهم.
- **عدّاس** :غلام نصراني من أهل نينوى، التقى به النبي ﷺ في الطائف وآمن به حينها.

[1]) رواه البخاري ج12 ص 331 رقم 3647

قوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)(28) اختتمت سورة الحديد بنداء للذين آمنوا ، آمرة لهم بتقوى الله ، والإيمان بالنبي محمد ﷺ ، فالخطاب وإن كان في ظاهره عام إلا أنه مخصوص كما ورد في السياق ، حيث يقصد به من آمن من أهل الكتاب بالرسل السابقين على نبي الله محمد ﷺ ، إذ يأمرهم الله تعالى بالتقوى وتجديد الإيمان به وفق شرعه ورسالته الخاتمة ألا وهي رسالة نبي الله محمد ﷺ ، إذ لا يكتمل إيمانهم السابق إلا بإيمانهم اللاحق بالنبي محمد ﷺ ، فمن آمن منهم بالنبي ﷺ فله أجران ، أجر الإيمان الأول بالرسل السابقين ، وأجر الإيمان اللاحق بالنبي محمد ﷺ

قوله (..يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)(28) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (ثَلَاثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ إِذَا أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ وَرَجُلٌ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ)[1] ، وقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (وَإِذَا آمَنَ بِعِيسَى ثُمَّ آمَنَ بِي فَلَهُ أَجْرَانِ)[2].

وفي ذلك دلالة على أن الإسلام لا يبطل الشرائع السابقة قبل بعثة النبي ﷺ ، وإنما تقضي القاعدة الأصولية بأن **شرع ما قبلنا هو شرع لنا ما لم يأت الدليل بنسخه** ، فشرع ما قبلنا **رحمة** كما أن شريعة نبينا محمد ﷺ رحمة ، وكلاهما كذلك **نور** يمشي به المؤمن ليهتدي إلى الصراط المستقيم ، وكلاهما يستوجب مغفرة الله تعالى للذنوب والرحمة التي يذوقها المؤمن في قلبه حلاوة يستشعرها ويتذوقها كما بين النبي ﷺ (**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا**) [3]

قوله (وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)(28) النور يناله من اتبع طريق الإيمان ، لكن الإنسان لابد وأن يقصر في السير في الطريق حتى تتداركه رحمة ربه ومغفرته –يقول صاحب الظلال – (فالإنسان إنسان مهما وهب من النور ، إنسان يقصر حتى لو عرف الطريق . إنسان يحتاج إلى المغفرة فتدركه رحمة الله . .) .

قوله (لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (الحديد/29-28) عاتب الله أهل الكتاب أنهم تأخروا عن نصرة نبيهم محمد ﷺ وقد آمنوا من قبل بالرسل السابقين ، فكان أولى لهم أن ينالوا شرف السبق لهذا الخير ، وكانوا من قبل يستفتحون على مشركي مكة أنهم أهل كتاب وأن نبي آخر الزمان سوف يأتي منهم ، فظنوا في أنفسهم الخيرية على غيرهم ، فلما جاء نبي آخر الزمان في مكة حسدوه ، فلما اتبعه ضعفاء أهل مكة وبهم بدأ دعوته استقلوه ، فلما هاجر من مكة للمدينة ونصره أهلها وسودوه عليهم حسدوه مرة أخرى أن اجتمع بالمجاهرين والأنصار دونهم ، وظنوا في أنفسهم أنهم خير من أصحابه ، قال الثعالبي والمعنى ليعلمَ أَهل الكتابِ أَنَّهم ليسوا كما يزعمون) [4]، ولذلك خاطبهم الله في آية أخرى فقال لهم (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ

[1]) رواه البخاري ج1ص 170 رقم 95
[2]) رواه البخاري ج11 ص 263 رقم 3190
[3]) رواه مسلم ج1 ص 62 رقم 34
[4]) تفسير الثعالبي ج4 ص 63

حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) (المائدة 68)

قال ابن جزي (المعنى : إن كان الخطاب لأهل الكتاب : يا أهل الكتاب آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ليعلم أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ليلعم أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا أن لا يقدروا على شيء من فضل الله الذي وعد من آمن منكم ، وهو تضعيف الأجر والنور والمغفرة ، لأنهم لم يسلموا ، فلم ينالوا شيئاً ، من ذلك ، وإن كان الخطاب للمسلمين ، فالمعنى : ليعلم أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا أنهم لا يقدرون أن ينالوا شيئاً ممن أعطى الله المسلمين من تضعيف الأجر والنور والمغفرة ، وقد روي في سبب نزول الآية : أن اليهود افتخرت على المسلمين فنزلت الآية في الرد عليهم)[1].

وبذلك أبطل الله شبهة أهل الكتاب بأنهم الأحق بالنبي الذي يأتي آخر الزمان ، وأنهم أفضل الناس بالكتب المنزلة عليه واتباعهم للرسل المرسلين قبل محمد ﷺ ، فهم ليسوا أهلا لهذا الفضل الله وقد تأخروا عن نصرة نبيهم محمد ﷺ ، وقد سبقهم لذلك الفضل أصحاب النبي محمد ﷺ من المهاجرين والأنصار الذي بايعوه ونصروه وجاهدوا معه ، فعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ:"لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةَ " أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ " فَخَرَجَتِ الْيَهُودُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَتْ: مَنْ آمَنَ مِنَّا بِكِتَابِكُمْ وَكِتَابِنَا فَلَهُ أَجْرَانِ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِكِتَابِكُمْ فَلَهُ أَجْرٌ كَأُجُورِكُمْ، فأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ " ، فَزَادَهُمُ النُّورَ وَالْمَغْفِرَةَ " لِئَلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلا يَقْدِرُونَ "[2].

فالعبرة بالاتباع للرسل ونصرتهم دون انقطاع ، وهم قد تأخروا عن اللحوق بالنبي ﷺ وسبقهم المهاجرون ثم الأنصار ، ولذلك فالخيرية لهم عليهم ، كما بين ذلك قوله تعالى (**لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ** أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىَ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (الحديد 10) ، فالعبرة هنا ليست بمن سبق للإيمان كما هو شأن أهل الكتاب الذين آمنوا بعيسى والرسل قبله ، وقد تأخروا عن الإيمان برسول الله محمد ﷺ ونصرته ، فرغم أن منهم من كان سابقا بالإيمان إلا أن كثير منهم تقاعس عن تحقيق مضمونه واكتفى بالانتساب له وتأخر عن نصرة الله ورسله ، فقلما تجد في جيش الرسول أحدًا من أهل الكتاب إلا مهاجرا أو نصاريا ، وسلمان الفارسي الذي كان قد تنصر قبل الإسلام وقد شارك النبي ﷺ في غزوة الخندق ، وكان له باع في النصرانية ، فكان يبحث عن الحقيقة ، وعلم النبي ﷺ بعلاماته الموجودة عنده في النصرانية .

فعن سلمان الفارسي يقول كُنْتُ رَجُلًا فَارِسِيًّا مِنْ أَهْلِ أَصْبَهَانَ .... وَأَجْهَدْتُ فِي الْمَجُوسِيَّةِ حَتَّى كُنْتُ قَطَنَ النَّارِ الَّذِي يُوقِدُهَا لَا يَتْرُكُهَا تَخْبُو سَاعَةً .... فَمَرَرْتُ بِكَنِيسَةٍ مِنْ كَنَائِسِ النَّصَارَى فَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ فِيهَا وَهُمْ يُصَلُّونَ .. فَلَمَّا مَرَرْتُ بِهِمْ وَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ دَخَلْتُ عَلَيْهِمْ أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُونَ ، قَالَ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ أَعْجَبَنِي صَلَاتُهُمْ وَرَغِبْتُ فِي أَمْرِهِمْ وَقُلْتُ هَذَا وَاللَّهِ خَيْرٌ مِنْ الدِّينِ الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ ، فَوَاللَّهِ مَا تَرَكْتُهُمْ حَتَّى غَرَبَتْ الشَّمْسُ ، .. فَقُلْتُ لَهُمْ أَيْنَ أَصْلُ هَذَا

[1]) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ج1 ص 2335
[2]) تفسير ابن أبي حاتم ج11 ص 317

الدِّينِ قَالُوا بِالشَّامِ قَالَ ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى أَبِي .. قَالَ أَيْ بُنَيَّ لَيْسَ فِي ذَلِكَ الدِّينِ خَيْرٌ دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ خَيْرٌ مِنْهُ قَالَ قُلْتُ كَلَّا وَاللَّهِ إِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ دِينِنَا ، قَالَ فَخَافَنِي فَجَعَلَ فِي رِجْلَيَّ قَيْدًا ثُمَّ حَبَسَنِي فِي بَيْتِهِ ، قَالَ وَبَعَثْتُ إِلَيَّ النَّصَارَى فَقُلْتُ لَهُمْ إِذَا قَدِمَ عَلَيْكُمْ رَكْبٌ مِنَ الشَّامِ تُجَّارٌ مِنَ النَّصَارَى فَأَخْبِرُونِي بِهِمْ قَالَ فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ رَكْبٌ مِنَ الشَّامِ تُجَّارٌ مِنَ النَّصَارَى قَالَ فَأَخْبَرُونِي بِهِمْ قَالَ فَقُلْتُ لَهُمْ إِذَا قَضَوْا حَوَائِجَهُمْ وَأَرَادُوا الرَّجْعَةَ إِلَى بِلَادِهِمْ فَآذِنُونِي بِهِمْ قَالَ فَلَمَّا أَرَادُوا الرَّجْعَةَ إِلَى بِلَادِهِمْ أَخْبَرُونِي بِهِمْ فَأَلْقَيْتُ الْحَدِيدَ مِنْ رِجْلَيَّ ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُمْ حَتَّى قَدِمْتُ الشَّامَ فَلَمَّا قَدِمْتُهَا قُلْتُ مَنْ أَفْضَلُ أَهْلِ هَذَا الدِّينِ قَالُوا **الْأَسْقُفُّ فِي الْكَنِيسَةِ** قَالَ فَجِئْتُهُ فَقُلْتُ إِنِّي قَدْ رَغِبْتُ فِي هَذَا الدِّينِ وَأَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ مَعَكَ أَخْدُمُكَ فِي كَنِيسَتِكَ وَأَتَعَلَّمُ مِنْكَ وَأُصَلِّي مَعَكَ قَالَ فَادْخُلْ فَدَخَلْتُ مَعَهُ قَالَ **فَكَانَ رَجُلَ سَوْءٍ يَأْمُرُهُمْ بِالصَّدَقَةِ وَيُرَغِّبُهُمْ فِيهَا فَإِذَا جَمَعُوا إِلَيْهِ مِنْهَا أَشْيَاءَ اكْتَنَزَهُ لِنَفْسِهِ وَلَمْ يُعْطِهِ الْمَسَاكِينَ** حَتَّى جَمَعَ سَبْعَ قِلَالٍ مِنْ ذَهَبٍ وَوَرِقٍ قَالَ وَأَبْغَضْتُهُ بُغْضًا شَدِيدًا لِمَا رَأَيْتُهُ يَصْنَعُ ثُمَّ مَاتَ ، فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ النَّصَارَى لِيَدْفِنُوهُ فَقُلْتُ لَهُمْ إِنَّ هَذَا كَانَ رَجُلَ سَوْءٍ يَأْمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ وَيُرَغِّبُكُمْ فِيهَا فَإِذَا جِئْتُمُوهُ بِهَا اكْتَنَزَهَا لِنَفْسِهِ وَلَمْ يُعْطِ الْمَسَاكِينَ مِنْهَا شَيْئًا قَالُوا وَمَا عِلْمُكَ بِذَلِكَ قَالَ قُلْتُ أَنَا أَدُلُّكُمْ عَلَى كَنْزِهِ قَالُوا فَدُلَّنَا عَلَيْهِ قَالَ فَأَرَيْتُهُمْ مَوْضِعَهُ قَالَ فَاسْتَخْرَجُوا مِنْهُ سَبْعَ قِلَالٍ مَمْلُوءَةٍ ذَهَبًا وَوَرِقًا قَالَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا وَاللَّهِ لَا نَدْفِنُهُ أَبَدًا فَصَلَبُوهُ ثُمَّ رَجَمُوهُ بِالْحِجَارَةِ ثُمَّ جَاءُوا بِرَجُلٍ آخَرَ فَجَعَلُوهُ بِمَكَانِهِ قَالَ يَقُولُ سَلْمَانُ فَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا لَا يُصَلِّي الْخَمْسَ أَرَى أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْهُ أَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا وَلَا أَرْغَبُ فِي الْآخِرَةِ وَلَا أَدْأَبُ لَيْلًا وَنَهَارًا مِنْهُ قَالَ فَأَحْبَبْتُهُ حُبًّا لَمْ أُحِبَّهُ مَنْ قَبْلَهُ وَأَقَمْتُ مَعَهُ زَمَانًا ثُمَّ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ ، فَقُلْتُ لَهُ يَا فُلَانُ إِنِّي كُنْتُ مَعَكَ وَأَحْبَبْتُكَ حُبًّا لَمْ أُحِبَّهُ مَنْ قَبْلَكَ وَقَدْ حَضَرَكَ مَا تَرَى مِنْ أَمْرِ اللَّهِ **فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي وَمَا تَأْمُرُنِي** ؟ قَالَ أَيْ بُنَيَّ **وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا الْيَوْمَ عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ لَقَدْ هَلَكَ النَّاسُ وَبَدَّلُوا وَتَرَكُوا أَكْثَرَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا رَجُلًا بِالْمَوْصِلِ** وَهُوَ فُلَانٌ فَهُوَ عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ فَالْحَقْ بِهِ ، قَالَ فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ **لَحِقْتُ بِصَاحِبِ الْمَوْصِلِ** فَقُلْتُ لَهُ يَا فُلَانُ إِنَّ فُلَانًا أَوْصَانِي عِنْدَ مَوْتِهِ أَنْ أَلْحَقَ بِكَ وَأَخْبَرَنِي أَنَّكَ عَلَى أَمْرِهِ قَالَ فَقَالَ لِي أَقِمْ عِنْدِي فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ **فَوَجَدْتُهُ خَيْرَ رَجُلٍ عَلَى أَمْرِ صَاحِبِهِ** فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قُلْتُ لَهُ يَا فُلَانُ إِنَّ فُلَانًا أَوْصَى بِي إِلَيْكَ وَأَمَرَنِي بِاللُّحُوقِ بِكَ وَقَدْ حَضَرَكَ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا تَرَى فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي وَمَا تَأْمُرُنِي قَالَ أَيْ بُنَيَّ **وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ رَجُلًا عَلَى مِثْلِ مَا كُنَّا عَلَيْهِ إِلَّا بِنَصِيبِينَ وَهُوَ فُلَانٌ فَالْحَقْ بِهِ** وَقَالَ فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ لَحِقْتُ بِصَاحِبِ نَصِيبِينَ فَجِئْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِي وَمَا أَمَرَنِي بِهِ صَاحِبِي قَالَ فَأَقِمْ عِنْدِي فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ **فَوَجَدْتُهُ عَلَى أَمْرِ صَاحِبَيْهِ** فَأَقَمْتُ مَعَ خَيْرِ رَجُلٍ فَوَاللَّهِ مَا لَبِثَ أَنْ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَلَمَّا حَضَرَ قُلْتُ لَهُ يَا فُلَانُ إِنَّ فُلَانًا كَانَ أَوْصَى بِي إِلَى فُلَانٍ ثُمَّ أَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَيْكَ فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي وَمَا تَأْمُرُنِي قَالَ أَيْ بُنَيَّ **وَاللَّهِ مَا نَعْلَمُ أَحَدًا بَقِيَ عَلَى أَمْرِنَا آمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ إِلَّا رَجُلًا بِعَمُّورِيَّةَ** فَإِنَّهُ بِمِثْلِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ فَإِنْ أَحْبَبْتَ فَأْتِهِ قَالَ فَإِنَّهُ عَلَى أَمْرِنَا قَالَ فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ **لَحِقْتُ بِصَاحِبِ عَمُّورِيَّةَ** وَأَخْبَرْتُهُ خَبَرِي فَقَالَ أَقِمْ عِنْدِي فَأَقَمْتُ مَعَ رَجُلٍ عَلَى هَدْيِ أَصْحَابِهِ وَأَمْرِهِمْ قَالَ وَاكْتَسَبْتُ حَتَّى كَانَ لِي بَقَرَاتٌ وَغُنَيْمَةٌ قَالَ ثُمَّ نَزَلَ بِهِ أَمْرُ اللَّهِ فَلَمَّا حَضَرَ قُلْتُ لَهُ يَا فُلَانُ إِنِّي كُنْتُ مَعَ فُلَانٍ فَأَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ وَأَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ ثُمَّ أَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَيْكَ فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي وَمَا تَأْمُرُنِي قَالَ أَيْ بُنَيَّ **وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُهُ أَصْبَحَ عَلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ آمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ أَظَلَّكَ زَمَانُ نَبِيٍّ هُوَ مَبْعُوثٌ بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ يَخْرُجُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ مُهَاجِرًا إِلَى أَرْضٍ بَيْنَ حَرَّتَيْنِ** بَيْنَهُمَا نَخْلٌ بِهِ عَلَامَاتٌ لَا تَخْفَى

1- يَأْكُلُ الْهَدِيَّةَ
2- وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ
3- بَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ

فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَلْحَقَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ فَافْعَلْ قَالَ ثُمَّ مَاتَ وَغَيَّبَ فَمَكَثْتُ بِعَمُّورِيَّةَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَمْكُثَ ثُمَّ مَرَّ بِي نَفَرٌ مِنْ كَلْبٍ تُجَّارًا فَقُلْتُ لَهُمْ تَحْمِلُونِي إِلَى أَرْضِ الْعَرَبِ وَأُعْطِيكُمْ بَقَرَاتِي هَذِهِ وَغُنَيْمَتِي هَذِهِ قَالُوا نَعَمْ فَأَعْطَيْتُهُمُوهَا وَحَمَلُونِي حَتَّى إِذَا قَدِمُوا بِي وَادِي الْقُرَى **ظَلَمُونِي فَبَاعُونِي مِنْ رَجُلٍ مِنْ يَهُودَ عَبْدًا** فَكُنْتُ عِنْدَهُ وَرَأَيْتُ النَّخْلَ وَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ الْبَلَدَ الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي وَلَمْ يَحِقْ لِي فِي نَفْسِي، فَبَيْنَمَا أَنَا عِنْدَهُ قَدِمَ عَلَيْهِ ابْنُ عَمٍّ لَهُ مِنْ الْمَدِينَةِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ فَابْتَاعَنِي مِنْهُ فَاحْتَمَلَنِي إِلَى الْمَدِينَةِ فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُهَا فَعَرَفْتُهَا بِصِفَةِ صَاحِبِي **فَأَقَمْتُ بِهَا وَبَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ** فَأَقَامَ بِمَكَّةَ مَا أَقَامَ لَا أَسْمَعُ لَهُ بِذِكْرٍ مَعَ مَا أَنَا فِيهِ مِنْ شُغْلِ **الرِّقِّ ثُمَّ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ** فَوَاللَّهِ إِنِّي لَفِي رَأْسِ عَذْقٍ لِسَيِّدِي أَعْمَلُ فِيهِ بَعْضَ الْعَمَلِ وَسَيِّدِي جَالِسٌ إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ عَمٍّ لَهُ حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ فُلَانٌ قَاتَلَ اللَّهُ بَنِي قَيْلَةَ وَاللَّهِ **إِنَّهُمْ الْآنَ لَمُجْتَمِعُونَ بِقُبَاءَ عَلَى رَجُلٍ قَدِمَ عَلَيْهِمْ مِنْ مَكَّةَ الْيَوْمَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَبِيٌّ** قَالَ فَلَمَّا سَمِعْتُهَا أَخَذَتْنِي الْعُرَوَاءُ حَتَّى ظَنَنْتُ سَأَسْقُطُ عَلَى سَيِّدِي قَالَ وَنَزَلْتُ عَنْ النَّخْلَةِ فَجَعَلْتُ أَقُولُ لِابْنِ عَمِّهِ ذَلِكَ مَاذَا تَقُولُ مَاذَا تَقُولُ قَالَ فَغَضِبَ سَيِّدِي فَلَكَمَنِي لَكْمَةً شَدِيدَةً ثُمَّ قَالَ مَا لَكَ وَلِهَذَا أَقْبِلْ عَلَى عَمَلِكَ قَالَ قُلْتُ لَا شَيْءَ إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَسْتَثْبِتَ عَمَّا قَالَ وَقَدْ كَانَ عِنْدِي شَيْءٌ قَدْ جَمَعْتُهُ فَلَمَّا أَمْسَيْتُ أَخَذْتُهُ ثُمَّ **ذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِقُبَاءَ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ** فَقُلْتُ لَهُ إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ وَمَعَكَ أَصْحَابٌ لَكَ غُرَبَاءُ ذَوُو حَاجَةٍ وَهَذَا شَيْءٌ كَانَ عِنْدِي لِلصَّدَقَةِ فَرَأَيْتُكُمْ أَحَقَّ بِهِ مِنْ غَيْرِكُمْ قَالَ فَقَرَّبْتُهُ إِلَيْهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ كُلُوا وَأَمْسَكَ يَدَهُ فَلَمْ يَأْكُلْ قَالَ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي هَذِهِ وَاحِدَةٌ ثُمَّ انْصَرَفْتُ عَنْهُ فَجَمَعْتُ شَيْئًا وَتَحَوَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ ثُمَّ جِئْتُ بِهِ فَقُلْتُ إِنِّي رَأَيْتُكَ لَا تَأْكُلُ الصَّدَقَةَ وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أَكْرَمْتُكَ بِهَا قَالَ فَأَكَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ فَأَكَلُوا مَعَهُ قَالَ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي هَاتَانِ اثْنَتَانِ ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِبَقِيعِ الْغَرْقَدِ قَالَ وَقَدْ تَبِعَ جَنَازَةً مِنْ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِ شَمْلَتَانِ لَهُ وَهُوَ جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَدَرْتُ أَنْظُرُ إِلَى ظَهْرِهِ هَلْ أَرَى الْخَاتَمَ الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي فَلَمَّا رَآنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اسْتَدْرَتُهُ عَرَفَ أَنِّي أَسْتَثْبِتُ فِي شَيْءٍ وُصِفَ لِي قَالَ فَأَلْقَى رِدَاءَهُ عَنْ ظَهْرِهِ فَنَظَرْتُ إِلَى الْخَاتَمِ فَعَرَفْتُهُ فَانْكَبَبْتُ عَلَيْهِ أُقَبِّلُهُ وَأَبْكِي فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَحَوَّلْ فَتَحَوَّلْتُ فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ حَدِيثِي كَمَا حَدَّثْتُكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ فَأَعْجَبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَسْمَعَ ذَلِكَ أَصْحَابُهُ **ثُمَّ شَغَلَ سَلْمَانَ الرِّقُّ حَتَّى فَاتَهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَدْرٌ وَأُحُدٌ** قَالَ ثُمَّ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَاتِبْ يَا سَلْمَانُ فَكَاتَبْتُ صَاحِبِي عَلَى ثَلَاثِ مِائَةِ نَخْلَةٍ أُحْيِيهَا لَهُ بِالْفَقِيرِ وَبِأَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ **أَعِينُوا أَخَاكُمْ فَأَعَانُونِي بِالنَّخْلِ** الرَّجُلُ بِثَلَاثِينَ وَدِيَّةً وَالرَّجُلُ بِعِشْرِينَ وَالرَّجُلُ بِخَمْسَ عَشْرَةَ وَالرَّجُلُ بِعَشْرٍ يَعْنِي الرَّجُلُ بِقَدْرِ مَا عِنْدَهُ حَتَّى اجْتَمَعَتْ لِي ثَلَاثُ مِائَةِ وَدِيَّةٍ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اذْهَبْ يَا سَلْمَانُ فَفَقِّرْ لَهَا فَإِذَا فَرَغْتَ فَأْتِنِي أَكُونُ أَنَا أَضَعُهَا بِيَدَيَّ فَفَقَّرْتُ لَهَا وَأَعَانَنِي أَصْحَابِي حَتَّى إِذَا فَرَغْتُ مِنْهَا جِئْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعِي إِلَيْهَا فَجَعَلْنَا نُقَرِّبُ لَهُ الْوَدِيَّ وَيَضَعُهُ رَسُولُ بِيَدِهِ فَوَالَّذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ مَا مَاتَتْ مِنْهَا وَدِيَّةٌ وَاحِدَةٌ فَأَدَّيْتُ النَّخْلَ وَبَقِيَ عَلَيَّ الْمَالُ فَأُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمِثْلِ بَيْضَةِ الدَّجَاجَةِ مِنْ ذَهَبٍ مِنْ بَعْضِ الْمَغَازِي فَقَالَ مَا فَعَلَ الْفَارِسِيُّ الْمُكَاتَبُ قَالَ فَدُعِيتُ لَهُ فَقَالَ خُذْ هَذِهِ فَأَدِّ بِهَا مَا عَلَيْكَ يَا سَلْمَانُ فَقُلْتُ وَأَيْنَ تَقَعُ هَذِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِمَّا عَلَيَّ قَالَ خُذْهَا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيُؤَدِّي بِهَا عَنْكَ قَالَ فَأَخَذْتُهَا فَوَزَنْتُ لَهُمْ مِنْهَا وَالَّذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً **فَأَوْفَيْتُهُمْ حَقَّهُمْ وَعُتِقْتُ** فَشَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْخَنْدَقَ ثُمَّ لَمْ يَفُتْنِي مَعَهُ مَشْهَدٌ)[1]

[1]) رواه أحمد ج48 ص 244 رقم 22620 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج2 ص 468

يقول النبي ﷺ (إنما **بقاءكم فيما سلف قبلكم من الأمم** كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس أوتي **أهل التوراة** التوراة فعملوا حتى إذا انتصف النهار عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا ثم أوتي **أهل الإنجيل** الإنجيل فعملوا حتى إلى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا **ثم أوتينا القرآن** فعلما إلى غروب الشمس فأعطينا قيراطين قيراطين فقال **أهل الكتابين** أي ربنا أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأعطيتنا قيراطا قيراطا ونحن كنا أكثر عملا ؟ قال قال الله عز وجل هل ظلمتكم من أجركم من شيء ؟ قالوا لا قال فهو فضلي أوتيه من أشاء) [1].

والمعنى أن أمة محمد ﷺ هي خير الأمم ، وقد فُضلت عما سبقها من الأمم لأنها وإن لم تكن مثلهم في كثرة الأعمال إلا أنها حققت مضمون الصالحات ، والمقاصد من الطاعات ، فلا حاجة لها برهبانية مبتدعة ، وإنما قصدت الحق وجاهدت في سبيله ، ولم يخدعها اختيال أو فخر .

ويشهد لذلك كذلك قوله سبحانه (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) (آل عمران/110) ، أي لو آمن أهل الكتاب من قبل لسبقوكم إلى هذا الخير ولأخذوا أجرهم مرتين كما أخذتم أجركم مرتين بما حققتموه من مقاصد الطاعات ، فمناط التفضيل على درجتين :-

الدرجة الأولى : هي السبق للإسلام والإيمان بالله ورسله وكتبه ، وقد سبق لذلك أهل الكتاب ، فلهم الفضل .

والدرجة الثانية أن يحقق المكلف مقاصد الشرع دون ابتداع ، وذلك بأن يحقق الإيمان الكامل لله تعالى ، فلا يقبل منه إيمان دون تضحية وبذل وعطاء في سبيل الله .

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)(الحجرات : 14-15) ، نفي عن الأعراب الإيمان الكامل ، إذ ينقصهم الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله حتى يصدق عليه وصف الإيمان ، كما أشار لذلك قوله تعالى (سابقوا إلى مغفرة من ربكم) ، وقوله سبحانه (والسابقون السابقون أولئك المقربون) ، فمن جمع بين المقاصد الشرع والسبق إلى الخير فقد جمع بين الحسنيين وفاز بفضل الله العظيم .

[1]) رواه البخاري ج1 ص 204 رقم 532

الفهرس

تمهيد : 1
مقدمة سورة الحديد 4
ترسيخ الاعتقاد في الله تعالى – أسمائه وصفاته – تمهيدا لمتطلبات الإيمان 4
المحور الأول 15
الإنفاق في سبيل الله برهان الإيمان 15
الدرس الأول 15
إنفاق المال في سبيل الله برهان إيمان العبد بالله 15
الدرس الثاني 22
الصدقة نور ، والبخل يحجز المنافق عن النور يوم القيامة 22
الدرس الثالث 28
القلوب تنهض للبذل والعمل الصالح عندما تستفيق 28
الدرس الرابع 33
ترتيب منازل الصديقين بقدر البذل والعطاء 33
الدرس الخامس 37
التلهي بالدنيا والتفاخر بها يؤخر المتسابقين لمغفرة الله 37
الدرس السادس 46
حكمة الله بإنزال المصيبة بمن بخل 46
المحور الثاني 49
الجهاد رهبانية هذه الأمة 49
الدرس الأول 49
إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن 49
الدرس الثاني 55
الجهاد رهبانية هذه الأمة 55
الفهرس 65